د. محمد عبد الشفيع عيسى

القومية العربية

الإطار النظري – المسار التاريخي – الأزمة والتجديد

الاهداء

الى الأخ العربي الجليل الأستاذ جميل مطر المدير العام للمركز العربي لبحوث التنمية والمستقبل (القاهرة) وللجهاز الإداري الممتاز للمركز ... وذلك تقديراً لجهوده في خدمة الثقافة العربية... وخاصة تلك الجهود الكريمة التي قام بها لتنظيم الندوة الموسعة عن المفكر العربي الكبير الراحل د. عصمت سيف الدولة والمستقبل العربي التي أقيمت في القاهرة. ما بين (٢٨ و ٣٠ آذار- مارس - ٢٠٠٠)

معاً على طريق الوحدة العربية.

٢٣- تموز-- يوليو- ٢٠٠٠

دار الأنصار- دمشق

تقديم

القومية العربية

يكتبه : حبيب عيسى

(١)

ستبقى قضية القومية العربية حاضرة ، حية في ذوات القوميين ، يتراجعون ويتقدمون ، يهزمون وينتصرون ... إلى أن يتمكن جيل عربي قادم في زمن ما ... من تحقيق الحلم العربي القومي بإقامة دولة الوحدة العربية الواحدة شاملة أمة العرب من مشرقها إلى مغربها محتضنة تراب وطنها العربي بين المحيط والخليج .

والذين احتفلوا بانحسار تيار القومية العربية في السنوات الأخيرة من القرن العشرين عليهم أن يدققوا النظر في حساباتهم مع بداية القرن الواحد والعشرين ، ذلك أن ذلك الانحسار لم يكن في أي وقت من الأوقات يتعلق بالثوابت والأهداف والمبادئ والعقيدة وإنما كان وما يزال يتعلق بالأدوات والأساليب والوسائل التي يجمع القوميون العرب على ضرورة إعادة صياغتها وتأصيلها لتكون مناسبة للأهداف القومية من جهة ولتكون قادرة على مصارعة قوى وأساليب بالغة التعقيد والتطور تستهدف الوجود القومي للأمة العربية .

ونحن هنا لا نتحدث عن القوى المعادية للقومية العربية وتوجهاتها وأهدافها ذلك أنهم يسعون بكافة الوسائل والسبل لتحقيق مصالحهم وتحصين نظام هيمنتهم على العالم الذي يسمونه (النظام العالمي الجديد) ، وهم على حق في تقديراتهم بأن هذا النظام العالمي الفاسد والعنصري والإرهابي سينهار على رؤوسهم بمجرد أن تتمكن فصائل العمل القومي العربية من إقامة دولة الوحدة العربية ، ذلك أن تفتيت العرب هو حجر الزاوية في هذا النظام العالمي الأمريكي الإرهابي .

وإنما نتوجه بحديثنا حصراً إلى أولئك القوميين العرب الذين استبد بهم اليأس ، واستسلموا للغول الأمريكي و (حضارته) و (إعلامه) ، وانتقلوا من مواقع مقاومته إلى مواقع ترويج بضاعته ، هؤلاء لم يخجلوا من النكوص عن المبادئ ، ولم يكتفوا بالدعوة إلى (فن الممكن) و (الواقعية) و (الحكمة) وإنما تحولوا إلى ترويج البضاعة الأمريكية الفاسدة في السوق (الشرق أوسطية) حيث يتم ترويج :

اقتصاد السوق ، ثقافة السوق ، وإيديولوجية السوق أيضاً ...

لكن كل هذا الصخب لم يحسم المعركة ... فالصراع مفتوح على أية حال ، وعلى كل عربي أن يختار موقعه بدقة وتدقيق ...

(٢)

ونحن هنا نقف باحترام شديد أمام بحث علمي عن القومية العربية لا يكتسب أهميته من منهجيته العلمية الرصينة ، والصارمة ، والشجاعة وحسب ، وإنما يكتسب أهميته أيضاً من شخص كاتبه ، ومن اللحظة التاريخية التي ينشر فيها ، ومن الدلالات والاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من هذا كله .

(٣)

د . محمد عبد الشفيع عيسى ، دخل هذا الاسم ذاكرتي في الربع الأول من عام ١٩٧٢ عندما بثت الإذاعات العربية والعالمية نبأ يفيد أن أجهزة الأمن في مصر قد ألقت القبض على مجموعات من الشباب العربي من مصر شكلت تنظيماً يدعى أنصار الطليعة العربية يهدف إلى إسقاط دول التجزئة في الوطن العربي وإقامة دولة الوحدة العربية الشاملة بين المحيط والخليج ، ورددت تلك الإذاعات في ذلك الوقت اسم شيخ هؤلاء الشباب العربي د . عصمت سيف الدولة ثم اسم د . محمد عبد الشفيع عيسى ، ثم تم نشر أسماء ما تبقى من أولئك الشباب تباعاً فيما بعد ، وأن عدد المعتقلين تجاوز العشرين .

- لقد كان ذلك الحدث حدثاً تاريخياً بغض النظر عن حجم وفاعلية التنظيم الذي أدعت أجهزة أمن الدولة في مصر أنها اكتشفته وألقت القبض على الخلايا الأساسية منه ، وهو ما عرف بالقضية رقم / ٣٧ / لعام ١٩٧٢ أمن دولة عليا .

- وكان حدثاً تاريخياً بغض النظر عن السبل التي سلكها أولئك الشباب العربي بعد ذلك ، وإن تفرقت بهم السبل .

- وكان حدثاً تاريخياً لأنه جاء في بداية مرحلة السبعينات من قلب مصر لمواجهة النكوص والارتداد ورفع راية الوحدة العربية ومقاومة التجزئة .

- وكان حدثاً تاريخياً لأنه يسجل أن القومية العربية ليست صناعة مشرقية وحسب فها هي الراية ترتفع في القلب العربي مصر ، وها هم نفر من شباب مصر يتلمسون الطريق لبناء أداة قومية لمقاومة التجزئة وتحقيق الوحدة العربية ، بغض النظر عن النجاح والفشل .

والأسباب ...

(٤)

الآن ، وبعد قرابة ثلاثين عاماً ... أحداث وأهوال ، وصراعات ... الماكينة الأمريكية الصهيونية تعمل بأقصى طاقتها لقلب الحقائق في الوطن العربي ، وانتهاك ثوابت الأمة العربية ، وتهديد هويتها الحضارية تهديداً شديداً باصطناع رايات وهويات لإقليميات وقبليات وطائفيات وعنصريات وإلى آخرهم بهدف طمس هوية الأمة العربية والإجهاز على مشروعها القومي التوحيدي .

في هذا الوقت ، الذي يجد القوميون العرب في الوطن العربي أنفسهم أمام استفزاز واستنفار حتمي لمواجهة مصيرهم ومصير أمتهم ... يصل هذا البحث عن القومية العربية إلى دار الأنصار بدمشق والباحث د . محمد عبد الشفيع عيسى .

الدلالات متروكة للقارئ العربي ... المهم أن اسم الباحث أنعش ذاكرتي والبحث استفز أحلامي لتمضي بعيداً ، ووجدت نفسي مرة أخرى أمام السؤال الكبير ما العمل ...؟ حيث الهروب من الإجابة لم يعد يندرج تحت عنوان الإهمال أو الكسل وإنما بات يندرج تحت عنوان الجرائم التي ترتكب بحق الأمة العربية .

(٥)

أما عن القومية العربية ، فإن الحديث ذو شجون لأن القرن العشرين انقضى ليطوي معه صفحة تجزئة بعض الأمم والشعوب إلى أكثر من دولة .. وكذلك لينهي قسر أمم وشعوب على تشكيل دولة واحدة متعددة الأمم ، كما أن دولاً قومية تتطور باتجاه التكاتف والتوحد الاختياري على صعيد قاري ، بعد أن أنجزت الدول القومية مهامها ... وحدهم العرب لم ينجزوا في القرن العشرين ما كان يجب عليهم إنجازه ليدخلوا العصر من باب الفعل الإيجابي في أحداثه وليس من باب الاستكانة لقوى الهيمنة الأمريكية الصهيونية عليهم وعلى العالم .

لقد عاد الألمان إلى دولة واحدة ، وقبلهم فعلها الفيتناميون الشجعان ، وانفرط الاتحاد السوفيتي إلى دول بعدد قومياته ، وكذلك الاتحاد السوفيتي وعادت هونغ كونغ إلى الصين ، وكذلك تتحفز تايوان للحاق بها ، كما يتلمس الكوريون طريقهم إلى الوحدة ليحققوها في أول لحظة انعتاق من التحكم الخارجي .

وحدها أمة العرب ممنوع عليها أن تقترب من فكرة الوحدة العربية ، ممنوع عليها أن تنجز دولتها القومية ، حتى أنه ممنوع على الدول التي تم تصنيعها على الأرض العربية أن تتضامن فيما بين بعضها البعض ، ممنوع عليها أن تتاجر مع بعضها البعض ... ممنوع عليها أن تسمح بحرية الحركة على الحدود فيما بين بعضها البعض ... العربي وحده في عالم اليوم ممنوع عليه أن يتجول في وطنه العربي ... على العربي أن يتحسس رأسه عند كل حاجز حدود بين دولة وأخرى من الدول المنتشرة على طول الأرض العربية وعرضها ، وعلى كل حاجز بين مدينة عربية وأخرى .

العالم كما يقولون دخل عصر العولمة ، وبعض المتحذلقين يقولون أن العالم غدا قرية صغيرة ، وبعض الأمم والشعوب المتطورة تتلمس طريقها إلى ما فوق الدولة القومية إلى وحدات قارية كما يفعل الأوروبيون مثلاً والعرب وحدهم ممنوع عليهم بالهيمنة الخارجية حيناً وبإرادة بعضهم للأسف الشديد حيناً آخر أن يقتربوا من مرحلة الوحدة القومية ...!

وإذا كنا نتفهم الأسباب التي تدفع قوى الهيمنة الدولية لاستخدام كافة الأسلحة والأدوات المتاحة لها لمنع العرب من تحقيق وحدتهم القومية ... ذلك أن حجم تدخل قوى الهيمنة الدولية في شؤون حياتنا يتناسب مع حجم المصالح الهائلة لتلك القوى في وطننا ...

فإن من العصي على الفهم والمنطق هذا السيل من الأبحاث والدراسات وتلك الجيوش من الباحثين والدارسين الذين يحملون هوية الأمة العربية ويكتبون بلغتها القومية ثم يتحدثون عن العلم والعولمة والعصر والعصرنة ثم يدعون العرب وبحالتهم الراهنة دخول تلك العولمة والعصرنة ، وكأنه من الممكن للأمة العربية أن تدخل عالم العصر والعلم قبل أن تحقق وحدتها القومية ، إلا إذا كانوا يريدون للأمة العربية أن تبقى ساحة مفتوحة مستباحة لقوى الهيمنة الدولية لا شخصية لها ولا فعل ولا موقف ولا هوية ؟

(٦)

لقد جرب العرب في الثلث الأخير للقرن العشرين كل البدائل المطروحة كبدائل للقومية العربية من أوائل البدائل الدينية مروراً بالبدائل المذهبية والطائفية والعشائرية والإقليمية إلى آخر البدائل الأممية وقد تم تجريب تلك البدائل بحسن نية أحياناً وبسوء نية أكثر الأحيان ، لكن النتيجة ماثلة أمام أعين الجميع ...

هذا يعني أن على القوميين العرب أن يعيدوا صياغة برامجهم ، وتأصيل وتجذير عقائدهم وتحديث أسلحتهم وأدواتهم ، وأن ينعتقوا من شرانقهم ، وأن يستخلصوا الدروس الغنية من تجاربهم المريرة ، ثم يقدموا إجابة حاسمة على السؤال الهام : ما العمل ...؟ ثم يبدأوا بممارسة هذا العمل بالفعل ...

والبحث العلمي الذي يضعه الدكتور محمد عبد الشفيع عيسى بين يدي القارئ العربي يأتي ضمن هذا السياق ، وعلى الطريق الصحيح ... علّه يثير حواراً جاداً وهادفاً حول موضوعاته .

دمشق ٢٣ / تموز (يوليو) / ٢٠٠٠

حبيب عيسى

بيان المحتويات

الفصل الأول: الإطار النظري للقومية

المبحث الأول : الأمة والقومية في الفكر السياسي العالمي (مختارات أساسية لأربعة مفكرين : رينان، ستالين، ماكس فيبر ، كارل رويتش).

المبحث الثاني : الأنماط أو النماذج السياسية- التاريخية للتكوين القومي (مقدمة نظرية)

الفصل الثاني : عوامل القومية :

عرض وتقييم لعوامل القومية في الفكر السياسي العربي .

١- اللغة ٢- الأصل المشترك

٣ – السكان ٤- الأرض!

٥- الاقتصاد المشترك ٦- الحضارة

٧- التاريخ ٨- الدين

٩- التكوين النفسي ١٠- الوعي القومي

الفصل الثالث: السياق المفاهيمي والتاريخي للامم والقوميات :

المبحث الأول : تحديد المصطلحات

المبحث الثاني : السياق التاريخي للأمم و القوميات .

الفصل الرابع : المراحل التاريخية لتطور الفكرة القومية العربية.

الفصل الخامس : القومية العربية بين الأزمة والتجديد الإيديولوجي.

الفصل الأول

الإطار النظري للقومية

تمهيد عام :

إن دراسة الفكر القومي كأحد الأفرع الرئيسية من الفكر السياسي يتطلب إطاراً نظرياً تقوم عليه. وهذا الإطار النظري في مجمله يتعرض للمفاهيم الأساسية وأهمها:

أ- مفهوم الأمة .

ب- مفهوم القومية.

ويتطلب الإطار النظري أن نبحث في هذين المفهومين من خلال المدارس السياسية الفكرية الكبرى وهي المدرسة المثالية و المدرسة المادية ومدرسة الوعي التاريخي و المدرسة السلوكية.

ومن خلال هذه المدارس سنتناول أربعة مفكرين قاموا بالتنظير لكل من مفهومي القومية والأمة وهم :

أولاً- المفكر الفرنسي " إرنست رينان " وقد عاش في القرن التاسع عشر وهو يمثل المدرسة المثالية في الفكر السياسي .

والمدرسة المثالية هي التي ترى أن جميع الأفعال السياسية تنطلق من القيم الخلقية والمثل العليا، وأن هذه القيم هي التي توجه تصرفات كلا من الحاكم والمحكوم وهذا بغرض الوصول لنظام سياسي أمثل يحقق القيمة العليا التي يقوم عليها.

ثانياً - جوزيف ستالين: وكان قائداً سياسياً مبرزاً حيث ظل حاكما للاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٢٤ وحتى وفاته في عام ١٩٥٣.

وقد طرح "ستالين" نفسه أيضاً كمفكر ويمثل المدرسة المادية في الفكر السياسي أى المدرسة القائمة على التفسير المادي للتاريخ ، بمعنى أن حركة التاريخ الإنساني في أي فترة من الفترات يتحكم فيها نمط او أسلوب الإنتاج .

وبطبيعة الحال فإن المدرسة المادية لا تقوم على أولوية القيم والأفكار بل على حقائق مادية- اقتصادية بالأساس .

ثالثاً – " ماكس فيبر " وهو يمثل (مدرسة في علم الإجتماع والسياسة) تقف موقفا وسطاً بين المدرسة المثالية والمدرسة المادية، لكنها أقرب للمدرسة المثالية، وهي مدرسة الوعي التاريخي وتؤمن بأن الوعي التاريخي والثقافي هو الذي يحرك تطور المجتمعات وتاريخها. بمعنى أن أي تغير في المجتمع ينشأ بسبب التغير في قيم هذا المجتمع والوعي بهذا التغير فمثلا يقول " فيبر " بأن الرأسمالية نشأت بالأساس نتيجة لتغير في القيم الاجتماعية وكذلك الحال بالنسبة للقومية والتي نشأت نتيجة الوعي بعوامل وقيم ثقافة معينة.

رابعاً- المفكر الألماني الأصل- امريكي الجنسية "كارل دويتش" وهو ينتمي للمدرسة السلوكية ويمثل انعكاساً لفكر هذه المدرسة في المجال السياسي . وترى المدرسة السلوكية أن دراسة علم السياسة تنصب ليس على الأفكار والقيم المطلقة العليا وأيضاً لا تنصب على دراسة المؤسسات القانونية والدستورية والتنظيمية ، بل هي ترى أن درسة علم السياسة تنصب على السلوك الفعلي والممارسة التي يقوم بها الأفراد والمؤسسات على الصعيد السياسي فهي إذن تعالج مسألة السلوك السياسي بصفة رئيسية .

وبهذا فإن المدرسة السلوكية تتناقض مع المدرسة المادية وتختلف مع المدرستين المثالية والتاريخية.

سوف نتناول هؤلاء المفكرين الأربعة في المبحث الأول من هذا الفصل ثم نستعرض الإطارات النظرية للبحث في القومية في المبحث الثاني .

وتجدر الإشارة إلى أننا في المبحث الأول سوف نقتبس مقتطفات من نصوص المفكرين محل البحث (Quotations) ثم نعقب بالتعليق على كل منها .

وسوف نشير إلى المقتطفات بتعبير (النص) ، وبعد الانتهاء من الاقتباس نقدم (التعليق)

المبحث الأول

الأمة والقومية في الفكر السياسي العالمي

مختارات أساسية لأربعة مفكرين

أولاً: ارنست رينان:

١- النص

يقول "رينان " في بحث له بعنوان " ما هي الأمة ؟ " مايلي :

"الأمة نفس ومبدأ روحي . وهناك شيئان، و شيئان فقط هما اللذان يكونان هذه النفس وهذا المبدأ الروحي ، أولهما في الماضي وثانيهما في الحاضر ، فأما الذي في الماضي فهو التملك المشترك لتركة غنية من الذكريات. وأما الذي في الحاضر فهو الرضا الفعلي Actual Consent والرغبة في العيش معاً ، أي إرادة الإستمرار طبقاً للقيم الموروثة التي يملكها الناس معاً ".

إن الإنسان أيها السادة ليس فقيراً ، والأمة مثلها مثل الفرد هي الناتج النهائي لمرحلة طويلة من العمل والتضحية والإيثار. حتى عبادة الأسلاف هي أمر مبرر بطريقة مفهومة، لأن أجدادنا هم الذين صنعونا كما نحن الآن . إن الماضي البطولي، للرجال العظام وللمجد - واقصد النوع الأصيل من البطولة والعظمة والمجد – إن هذا هو المبدأ الاجتماعي الذي تقوم عليه فكرة القومية.

إن تملك أمجاد مشتركة في الماضي وإرادة مشتركة في الحاضر وأن أشياء عضيمة تحققت لأفراد الأمة سوياً والرغبة في عمل ذلك مرة ثانية هذا هو الشرط الأساسي لتكوين الأمة .

إن الإنسان يحب بمقدار ما تحمل من تضحيات ولما عانى من أجله ، فالمرء يحب البيت الذي بناه والذي أسسه (١) .

-٢- التعقيب

من النص السابق ترى أن مفهوم الأمة عند " رينان " يعني " المبدأ الروحي " وأن هناك عنصرين فقط يكونان هذه الروح وهما عنصر في الماضي وعنصر في الحاضر .

١- عنصر الماضي ويراه على أنه الذكريات التاريخية المشتركة وهذه الذكريات موروثة وهي غنية ، ويقصد هنا تحديداً الذكريات البطولية .

٢- أما عنصر الحاضر فهو الإرادة والمشيئة بمعنى رغبة أعضاء المجتمع في العيش معاً.

وخلاصة القول أن الأمة والقومية عند " ارنست رينان " تتمحوران حول ذكريات الماضي البطولي المشترك والإرادة المشتركة في الحاضر للعيش سوياً في مجتمع واحد .

ثانياً - جوزيف ستالين :

١- النص

في تعريفه للأمة يقول ستالين بالنص ما يلي :

الأمة قبل كل شيء جماعة ، جماعة محددة من الناس . ثم أن هذه الجماعة ليست جماعة عرقية ولا هي قبلية ، فالأمة الإيطالية الحديثة تشكلت من الرومان والتردسكان والأغريق والعرب وهلم جرا . والأمة الفرنسية تكونت من الغال والرومان والبريتون والتيوتون وما إلى ذلك ويقال نفس الشيء عن البريطانيين والألمان وآخرين والذين تكونوا في أمم من أعراق وقبائل متنوعة .

وهكذا فالأمة ليست عرقاً أو قبيلة بل هي جماعة من الناس تكونت تاريخياً . ومن جهة أخرى فمن المسلم به أن الامبراطورية الكبيرة القديمة للإسكندر مثلاً لا يمكن أن تسمى أمة رغم أنها تكونت تاريخياً وتكونت من قبائل وأعراق مختلفة . إنها لم تكن أمماً ولكن خليط ضخم من المجموعات العارضة والضعيفة الترابط والتي انفرطت أو انضمت معاً وفق الانتصارات أو الهزائم لهذا الغازي أو ذاك . ومن ثم فالأمة ليست تجمعاً عارضاً أو سريع الزوال ولكن جماعة مستقرة من الناس .

ولكن كل جماعة مستقرة تكون أمة . إن امبراطوريتي (النمسا – المجر) وروسيا هي جماعات مستقرة ولكن لا أحد يعتبرهما أمتين . فما الذي يميز الجماعة القومية من الجماعة – الدولة ؟

الحقيقة أنه – من بين أشياء أخرى – فإن الجماعة القومية لا يمكن أن توجد بغير لغة مشتركة ، بينما أنه من غير اللازم أن تكون للدولة لغة مشتركة . إن الأمة التشيكية في النمسا والأمة البولندية في روسيا كلتاهما كان يمكن أن تكون مستحيلة الوجود إن لم تملك أي منهما لغة مشتركة بينهما إن وحدة كل من روسيا والنمسا لا تتأثر بوجود لغات مختلفة بين ظهرانيها . ونحن نقصد هنا بطبيعة الحال اللغات المحكية Spoken للناس وليست اللغات الحكومية أو الرسمية .

وهكذا فإن اللغة المشتركة أحد الخصائص الرئيسية للأمة . ولكن هذا لا يعني بالطبع أن الأمم المختلفة دوماً تتحدث لغات مختلفة وأيضاً ليس بالضرورة أن الذين يتحدثون لغة واحدة يكونون أمة .

فنجد الإنجليز والأمريكان لا يكونون أمة رغم أنهم يتكلمون لغة مشتركة ذلك أنهم لا يعيشون سوياً وإنما يسكنون أقاليم مختلفة .

والأمة تتشكل فقط كنتيجة لامتزاج طويل الأمد ومنظم ، وكنتيجة لعيش الناس معاً جيلاً بعد جيل . بيد أن الناس لا يمكنهم العيش معاً لفترات طويلة إن لم يكن لديهم إقليم مشترك Common Territory - وهكذا كان الإقليم المشترك واحداً من السمات المميزة للأمة .

ولكن هذا ليس كل ما في الأمر ، فالاقليم المشترك لا يخلق أمة من تلقاء نفسه وإنما يتطلب الأمر – بالاضافة إلى ذلك – رابطة اقتصادية تضم الأجزاء المختلفة للأمة في مجموع متفرد ، وليس هناك مثل هذه الرابطة بين انجلترا وأمريكا ولذا فهما تكونان أمتين مختلفين وهكذا فإن الحياة الاقتصادية المشتركة Economic Common Life والترابط المتبادل Common Cohesion هي أحد السمات المميزة للأمة .

ولكن هذا ليس كل شيء فبغض النظر عما سبق ، يجب ان تأخذ بعين الاعتبار التركيبة الروحية المحددة (Complexion Specific Spiritual) للناس الذين يشكلون أمة . إن الأمم لا تختلف باختلاف شروط الحياة فحسب وإنما أيضاً في التكوين الروحي والذي يتجلى في الخواص المتفردة للثقافة القومية . وبالطبع فإن هذا التكوين السيكولوجي أو كما يسمى الطابع القومي (National Character) هو شيء غير ملموس للمشاهد ولكن بمقدار ما يعكس نفسه في الثقافة المشتركة المميزة Dirtinctive للأمة فإنها تصبح شيئاً ملموساً ولا يمكن تجاهله وغني عن القول أن الطابع القومي ليس أمراً تكون مرة واحدة و للأبد ، ولكن يتأثر بالتغير في ظروف الحياة .

غير أنه نظراً لوجوده في كل لحظة من الزمان ، فإنه يترك بصمته على سيكولوجية الأمة وهكذا فإن التكوين النفسي المشترك Common Psychological Make Up والذي يتجلى في الثقافة المشتركة هو أحد الخصائص المميزة للأمة . (٢)

٢- التعقيب

يتضح لنا من النص السابق أن جوزيف ستالين طرح نفسه كمفكر وأوضح مفهوم الأمة بطريقة منظمة واضعاً عدداً من الخصائص كل منها يقود للخصيصة التي تليه ، وهي تشكل بمجموعها مفهوم الأمة . ويمكن أن نجمل هذه الخصائص في الآتي :

١- الأمة جماعة محددة من الناس .

٢- الأمة ليست قبيلة أو عرقاً معيناً .

٣- التكوين التاريخي لهذه الجماعة المحددة من الناس بمعنى التكوين من أصول مختلفة انصهرت عبر الزمن .

٤- هذه الجماعة المحددة من الناس المتكونة تاريخياً تتصف بالثبات النسبي بمعنى أن تكون جماعة مستقرة .

٥- شرط اللغة المشتركة وتنبع أهميته من أنه عامل يفرق بين الأمة والدولة وقد أوضح " ستالين " في نصه أن الأمة لها لغة مشتركة ولكن الدولة قد تكون متعددة اللغات وضرب مثلاً بإمبراطوريتي (النمسا – المجر) وروسيا .

٦- ذكر أيضاً (ستالين) مثلاً عن وجود جماعات لها لغة واحدة ولا تشكل أمة مثل الإنجليز والأمريكيين ، وأوضح أن هذا الاختلاف قادنا للعنصر السادس في تعريف الأمة .

٧- فاللغة ليست العامل الحاسم ولكن هناك الإقليم المشترك ويقصد به " وحدة الأرض " عند كثير من الكتاب القوميين في اللغة العربية .

٨- وجود الحياة الإقتصادية المشتركة في هذا الإقليم المشترك .

٩- وجود التركيبة النفسية المميزة وهي ما أطلق عليها المفكر الروسي " بلخانوف " " السجايا النفسية " أو " السيكولوجية الإجتماعية " ويقصد بها ستالين التكوين النفسي المشترك الذي يظهر في الثقافة المشتركة ويولد الطابع القومي . وهو عامل يختلف من أمة لأخرى نتيجة لاختلاف القيم والثقافة .

ونخلص من هذا إلى تعريف ستالين للأمة كما يلي :

" الأمة هي جماعة من الناس ، تكونت تاريخياً ، ومستقرة ، وتشكلت على أساس الاشتراك في اللغة والأرض والحياة الاقتصادية والتركيب النفسي المنعكس في الثقافة المشتركة " (٣)

ويؤكد ستالين أنه ليس في طاقة أي من الخصائص السابقة مأخوذاً وحده – أن يقدم تعريفاً للأمة بل وأكثر من هذا يكفي أن يغيب أحد هذه الخصائص لتكف الأمة عن الوجود وأنه فقط حينما توجد كل هذه الخصائص مجتمعة يمكن أن توجد أمة .

ثالثاً – ماكس فيبر

١- النص

يقول " ماكس فيبر " في تعريفه للأمة نصاً ما يلي :

" إن توهج التأثير العاطفي لا يأتي بصفة أساسية من العامل الاقتصادي ولكنه يقوم على مشاعر المكانة والتي ترتد غالباً إلى الجماعات البرجوازية الصغيرة الغنية بالمنجزات التاريخية لمواقع القوة . ولهذا وإذا كان لنا أن نحدد معنى الأمة بشكل واضح ، فلا يمكن وصفه من خلال " الخواص التجريبية المشتركة " بين أولئك الذين يعتبرون أنفسهم أعضاء في الأمة وغنما يعني هذا المفهوم أن المرء يمكن ان يستخلص من جماعات معينة من الناس شعوراً بالتضامن في مواجهة الجماعات الأخرى وهكذا ينتمي المفهوم إلى دائرة القيم Values .

ولا تتطابق الأمة – في المقام الأول – مع شعب الدولة (People Of State) أي مع عضوية مجتمع سياسي معين ، فهناك مجتمعات سياسية كثيرة تضم جماعات يتأكد لديها

استقلالية " أمتهم " في مواجهة الجماعات الأخرى أي قد تضم هذه المجتمعات السياسية أجزاء من جماعة يعتبرها أعضاؤها أمة متجانسة .

ثم أن الأمة لا تتطابق مع الجماعة التي تتكلم نفس اللغة وهذه حالة الصرب والكروات مثلاً وكذلك الأمريكيين والأيرلنديين والإنجليز . وعلى العكس فإن اللغة المشتركة ليس ضرورية بشكل مطلق للأمة وهذه هي الحالة السويسرية مثلاً . كما أن بعض الجماعات اللغوية لا تعتبر نفسها أمة منفصلة مثل حال روسيا البيضاء . ومع هذا فالميل إلى اعتبار جماعة معينة أمة خاصة يرتبط عادة باللغة المشتركة كقيمة ثقافية للجماهير . وهذه هي حالة البلد الذي يعتبر مثالاً كلاسيكياً للصراعات اللغوية وهي إمبراطورية النمسا وينطبق بنفس القدر على روسيا وشرق بروسيا . ولكن التضامن القومي بين الناس الذين يتحدثون نفس اللغة ، يمكن رفضه كمفهوم بنفس القدر الذي يمكن قبوله به ، كأن تعترضه خلافات دينية كما هي الحال بين الصرب والكروات ، مع أن الدين من عناصر القيم الثقافية للجماهير . فهنا يرتبط التضامن القومي بهياكل ومعايير اجتماعية معينة ومن ثم بعناصر عرقية كما هي الحال بالنسبة للألمان السويسريين والألزاسيين في مواجهة ألمان الرايخ ، أو بالنسبة للأيرلنديين في مواجهة البريطانيين ولكن التضامن القومي – يرتبط قبل كل شيء بذكريات المصير السياسي المشترك Common Political destiny - بين جماعات مختلفة ، كما هو الحال بالنسبة للألزاس مع الفرنسيين منذ الحرب الثورية التي تمثل عصرهم البطولي المشترك .

وغني عن القول أن الرابطة القومية National affiliation لا يلزم أن تقوم على الأصل المشترك في الدم Common Blood ولكن فكرة الأمة عرضة لأن تتضمن مفاهيم الأصل المشترك Common descent . وتتضمن الأمة هذه المفاهيم بشكل مشترك جنباً إلى جنب مع الشعور بتضامن الجماعة العرقية والذي يأتي أيضاً من مصادر مختلفة . وإن كان الشعور بالتضامن العرقي لا يصنع في حد ذاته أمة . إن جوهر الأمة يتأسس عادة على التفوق الثقافي ، وعلى الأقل ، عدم إمكانية استبدال القيم الثقافية التي يتعين الحفاظ عليها وتطويرها من خلال التربية ثم المحافظة على تفرد الجماعة . ومن ثم فإن المثقفين هم – بدرجة معينة – الذين بمثل ما أنهم يجدسدون الفكرة القومية بمثل ما أن أولئك الذين يمسكون بالسلطة (أو القوة) يمثلون فكرة الدولة . ونعني بالمثقفين تلك المجموعة من الناس الذين يملكون بفضل تفردهم إمكانية خاصة للوصول إلى تحقيق إنجازات معينة تعتبر " قيماً ثقافية " ويتولون من ثم قيادة " المجتمع الثقافي " . وإذا كان لنا أن نعين شيئاً مشتركاً يكمن خلف تلك اللفظة الغامضة جداً " الأمة " فإنهذا الشيء يقع في مجال السياسة . ويمكن للمرء أن يعرف مفهوم الأمة حينئذ على النحو التالي :

الأمة هي جماعة ذات شعور معين ، وهو الشعور الذي يتجلى بنفس القدر في إقامة دولة لنفسها . الأمة هي الجماعة التي تنحو عادة إلى إقامة دولتها الخاصة .

وتتنوع المكونات المسببة لنشوء الشعور القومي بهذا المعنى تنوعاً شديداً . إذا كان لنا أن نبعد " الاعتقاد الديني" والذي لم يفعل كل فعله حتى الآن وخاصة بين الصرب والكروات ، فإن العامل الذي يوضع في المقام الأول هو " المصائر السياسية المشتركة " بشكل خاص . وإن السبب الذي يدفع الإلزاسيين بعدم الشعور بالانتماء للأمة الألمانية يجب ان يلتمس في ذكرياتهم فإن مصيرهم السياسي قد اتخذ مساره خارج الدائرة الألمانية لأمد طويل ، وإن أبطالهم هم أبطال التاريخ الفرنسي .

ولئن جاز للمرء أن يعتبر الشعور القومي شيئاً متجانساً ومتفرداً فإن لنا أن نعقل ذلك فقط بالإشارة للتوجه نحو إقامة دولة مستقلة ويجب ان ندرك هنا أن مشاعر التضامن رغم اختلافها في طبيعتها وأصلها إنما تتشكل في خضم المشاعر القومية . (٤) .

٢- التعقيب

نلاحظ من النص السابق " لماكس فيبر " اختلافه عن الاتجاه الماركسي المادي فحينما يجعل ستالين الأمة تقوم على عناصر الحياة المادية بشكل أساسي كما سبق توضيحه فإن " فيبر" يرى أن الأمة تقوم على العكس من ذلك على الخصائص الثقافية . وبعبارة أخرى فإن الأمة عنده تتكون في الوعي التاريخي لأفرادها وترتكز على تطور قومي معين محدد بالمصير السياسي المشترك النابع من التطورات التاريخية والتي تحدد متغيرات القوة والمكانة .

وأوضح فيبر أن القوة الاجتماعية الأساسية التي تقود مشاعر القومية هي البرجوازيةالصغيرة والتي تملك مخزوناً شعورياً تاريخياً قوياً بالإنجاز القومي في مجال المكانة والهيبة .. فهذه هي المكانة الاجتماعية التي تشكل قيمة ثقافية .

وفي التحليل النهائي فإن الشعور بالأمة هو الشعور بالتضامن في مواجهة الجماعات الأخرى ولذلك نقول أن مفهوم الأمة عند " فيبر" ينتمي لدائرة القيم ، بمعنى أن الأمة هي ظاهرة اجتماعية قيمية وشعورية . ولتوضيح هذا فإن فيبر يفرق بين كل من الشعب والأمة ، فالشعب مفهوم سياسي يعني شعب الدولة والأمة هي مقولة تاريخية اجتماعية . إذن فالانتماء للأمة يختلف عن الانتماء لمجتمع سياسي معين فهناك دول أو مجتمعات سياسية تضم عناصر من أمم مختلفة وهناك أمة قد تتوزع بين دول مختلفة .

كما فرق بين الجماعات اللغوية والأمة وضرب مثلاً بالصرب والكروات وخلاصة الموضوع عند " فيبر" أن الأمة ترتبط بالتضامن القومي وذكريات المصير السياسي المشترك ومن ثم فإن الأمة تقوم أساساً في المجال الشعوري والثقافي والسياسي .

رابعاً – كارل دويتش :

١- النص

يستعرض كارل دويتش مفهومه عن القومية على النحو التالي :

" الجماعة التي يقوم لها تاريخ مشترك في الممارسة ، هي جماعة ذات عادات تكاملية ، ومرافق اتصالية وهذا يتطلب أجهزة لإداء وظيفة فأما الوظيفة فإنها تتمثل في تخزين واستعادة ونقل وإعادة توليف ، وكذلك إعادة تطبيق مدى واسع من المعلومات " .

وأما الأجهزة فإنها إذ تتكون في غمار مكونات محكمة من الذكريات والرموز والعادات وتفصيلات العمل . وإن المرافق تكون لديها ما يكفي من الطابع التكاملي بحيث تسمح بأداء هذه الوظائف .

وإن الجماعة الكبيرة من الأشخاص المرتبطين بهذه العادات التكاملية والمرافق الاتصالية يمكن تسميتها " بالشعب " . ومن الواضح أن توصيف الشعب بمعيار الاشتراك في اللغة أو الطابع أو الذكريات أو الماضي التاريخي ترد عليه إستثناءات مهمة .

إن المهم ليس وجود أو غياب عامل واحد معين ولكن فقط وجود المرافق الاتصالية الكافية لإنتاج محصلة شاملة فالسويسريون يتكلمون أربع لغات مختلفة ولكنهم شعب واحد ، لأن كلاً منهم لديه ما يكفي من العادات المجربة والتفصيلات والرموز والذكريات وأنماط لملكية الأرض والتقسيم الاجتماعي وأحداث التاريخ والروابط الشخصية والتي تسمح جميعها للشخص بالاتصال بفاعلية أكبر مع السويسريين الآخرين أكثر مما يمكن أن يحدث مع أولئك الذين يتكلمون لغته وينتمون إلى شعوب أخرى .

إننا نقترح هنا باختصار تعريفاً وظيفياً للقومية ، فإن العضوية في شعب معين تتشكل في غمار تكامل واسع للاتصال الإجتماعي ، تتشكل في المقدرة على الاتصال بفاعلية أكبر وعلى مدى واسع من الموضوعات مع الأعضاء الآخرين من نفس الجماعة الكبيرة أكثر مما يحدث مع الغرباء وهذه النتيجة الشاملة إنما تتحقق بترتيبات ناجحة وظيفياً .

وتتميز وظيفية القومية على هذا النحو عن المحاولات السابقة لتمييز القومية بمعيار الانتماء لأصل معين ، إن هذا يشابه التغيير الذي احدثته التكنولوجيا الحديثة في النظر لتقييم المواد اعتماداً على أداتها ، بينما كانت الممارسات السابقة لتقييم المواد تعتمد على تكوينها ، ففي كلا الحالتين : القومية والتكنولوجيا تحل اختبارات الإداء Performance tests محل مواصفات التكوين Composition specification وتقوم اختبارات الإداء المذكورة على تحليل مفصل للوظائف المنفذة .

إن الشعوب ترتبط سوية من داخلها From Within بكفاءتها الاتصالية ، بتكاملية مرافقها الاتصالية كما يكتسبها أعضاؤها . وهذه التكاملية العرقية Ethinic complementarity ليست عملاً ذاتياً فقط وإنما هي حقيقة موضوعية Objective fact يمكن قياسها باختبارات للإداء .

إن الشعب يكون وحدة اجتماعية واقتصادية وسياسية للأفراد من طبقات اجتماعية ومهن مختلفة حول مركز ومجموعة قيادية معينة أعضاؤه يتوحدون باتصال اجتماعي مكثف ويربطون إلى مراكزهم ومجموعاتهم القيادية بسلسلة غير قابلة للكسر من الروابط الاتصالية ، وكذا في الحياة الاقتصادية ، بدون أي احتمال لحدوث كسر حاد في إمكانيات الاتصال والاستبدال Substitution عند أي حلقة ، وبإمكانية أكبر من ثم للصعود الاجتماعي مرتبة أعلى مرتبة .

وبناء على ما سبق فإنه في غمار الاتصال الاجتماعي والسياسي للعصر الحديث يعني التجمع القومي اتحاد أعداد كبيرة من الأفراد من الطبقات الوسطى والدنيا مرتبطة بمراكز إقليمية وبحيث تقود الجماعات الاجتماعية بقنوات الاتصال الإجتماعي والتفاعل الإقتصادي سواء بشكل مباشر من حلقة إلى أخرى أو بشكل غير مباشر مع المراكز .

وفي عصر مذهب القومية Nationalism فإن التجمع القومي هو شعب يضغط من أجل اكتساب السيطرة الفعالة على سلوك أعضائه ، إنه شعب يكافح من أجل التزود بالسلطة بجهاز

معين للإرغام Compulsion – أي الإجبار – ولديه من القوة ما يكفي لفرض تنفيذ أوامره من أجل انتشار إعادة التوافق الطوعي معها – Voluntary Compliance .

وبمجرد أن يضيف التجمع القومي تلك السلطة إلى تماسكه cohesiveness الأصلي وترابطه حول رموز جماعية ، فإنه يعتبر نفسه أمة Nation كما يعتبر من قبيل الآخرين أمة أيضاً . وبهذا المعنى كنا نتحدث عن الأمة البولندية أو التشيكية أو الايرلندية حتى بعد أن فقدت هذه الجماعات كيانها السياسي السابق أو قبل ان تقيم لها دولة من أي نوع بعد فقدانها إياها على ذلك النحو .

ففي هذه الحالات تتحول التجمعات القومية إلى أمم حينما تكتسب القوة اللازمة لدعم تطلعاتها .

وإذا ما نجح القوميون أخيراً وبحيث يوضع في خدمتهم جهاز للدولة قديم أو جديد فحينئذ في النهاية تصبح الأمة كياناً سيادياً أي تنبثق أخيراً منها الدولة القومية (٥) .

٢- التعقيب :

يتضح لنا من النص السابق الاتجاه السلوكي لكارل دويتش في التفكير ، بيد أن هذا الاتجاه السلوكي لا يخرج عن نطاق الاتصال عموماً والاتصال الاجتماعي خصوصاً في طرحه لفكرة القومية والأمة .

وهو بهذا يختلف عن المفكرين السابقين فهو يرى أن السلوك السياسي هو مناط العملية السياسية وإن البحث في المجتمعات في القومية ليس بحثاً في القيم والأفكار كما يعتقد " رينان " وليس هو بحثاً في الوعي كما يقول " فيبر " كما انه لا يقوم على الأسس الاقتصادية المادية كما نجده عند " ستالين " وتقوم فكرته عن القومية على عدة أسس هي :

١- التكامل Intergration

بمعنى أن المجتمع السياسي الحقيقي يتسم بالتكامل بين اعضائه أي بوجود وحدة عضوية بين أعضائه .

٢- الاتصال Communication :

بمعنى حدوث نوع معين من التواصل بين أعضاء المجتمع عن طريق المعلومات وهذا يتحقق عن طريق بناء شبكة من المعلومات لأعضاء هذا المجتمع السياسي .

٣- الوظيفة :

ويعني ان النظام السياسي والأجهزة السياسية والحياة السياسية كلها تستهدف وظائف سياسية معينة ولذلك يتم الحكم على إداء الأجهزة السياسية بمدى تطبيقها للمهام المنوطة بها .

إذن في تعريف " كارل دويتش" للقومية فإنه يؤصل مفهوم الجماعة المتكاملة كما في النص باعتبارها " الجماعة التي يقوم لها تاريخ مشترك في الممارسة وهي عادة ذات عادات تكاملية ومرافق اتصالية .. "

أما المعلومات التي يتم تخزينها واستعادتها ونقلها وإعادة تركيبها ومن ثم تطبيقها من خلال أجهزة الإداء الوظيفي ، فإن كارل دويتش يقصد بهذه المعلومات المعنى الواسع والذي له دلالة اتصالية أي كل رموز المعرفة التي تتم بين الناس عن طريق الكلمة والإشارة والرمز .

وبعد ذلك يميز " دويتش" بين تعريفه الوظيفي للقومية وبين التعريفات الأخرى التي سبقته والتي كانت تهتم بالأصل المشترك الذي ينتمي إليه أعضاء المجتمع ، فلم يعد الأصل هو أساس تكوين الأمم عند دويتش ولكن الأساس هو المواصفات والوظائف الحقيقية فهو يقول : " إن الشعوب ترتبط من داخلها بكفاءتها الاتصالية وبتكامل مرافقها الاتصالية وهذه التكاملية لا ينظر إليها كحقيقة ذاتية ولكن كحقيقة موضوعية يمكن قياسها تطبيقاً باختبارات الإداء .

وهو يقصد باختبارات الإداء الأساليب الكمية في التطبيق لقياس الظاهرة محل الدراسة .

وأخيراً فإن " دويتش" يميز بين الجماعة القومية والأمة ، فأما الجماعة القومية فهي التي تتمتع بنوع معين من التماسك الاجتماعي حول الوظيفة الاتصالية ولكنها تفتقد للسلطة السياسية الموحدة . أما الأمة فهي جماعة قومية وقد اكتسبت سلطتها السياسية ، وحتى ولو عادت وفقدت السلطة لفترة معينة فإنها لا تفقد صفتها الأساسية كاملة .

وهكذا فإن المحك الرئيسي في التمييز بين الجماعة القومية والأمة هو إكتساب السلطة السياسية . ومتى أصبحت الجماعة القومية تمتلك هذه السلطة السياسية عن طريق جهاز للدولة يزيد من قدرتها الاتصالية والتماسك حول رموزها الجماعية فإن هذه الجماعة القومية تصبح أمة.

ملاحظة مرجعية :

أخذت الاستشهادات عن المفكرين الأربعة في المتن عن المرجع التالي :

١- John Hutchinson and Antony D.Smith , Nationalism 17-19 .pp ((University Press , 1994 : Oxford

٢- Ibid . pp. 14-20

٣- Ibid.p.٢٠

٤- IBID.PPO21-25

٥- Ibid.ppo26-29

المبحث الثاني

الانماط أو النماذج السياسية – التاريخية للتكوين القومي

(محاولة للتنظير)

بعد أن تناولنا المفكرين السابقين نستطيع أن نقدم عرضاً موجزاً عن تصنيف أهم النظريات بخصوص القومية ، ونستطيع أن نؤسس هذا التصنيف على المفهوم أو المقولة الأساسية التي تستند إليها النظريات القومية المختلفة ، بحيث يمكن القول بأن هناك مفهوماً أساسياً تنهض عليه كل نظرية أو إتجاه أساسي .

فما هي عناصر نظريات القومية ؟

إن أول عنصر فيها هو تحديد عوامل تكوين الأمم مع تقديم تفاضلي لهذه العوامل وثانيها تقديم إطار مفاهيم تفسيري لسياق التكوين التاريخي للأمم ، وأخيراً صياغة نموذج للعلاقة بين القومية والقوميات الأخرى وهي العناصر الثلاثة لأية نظرية في القومية وقد تكون النظرية شاملة أي تقدم إدعاء بشمول الظاهرة القومية على النطاق الكوني ، أو قد تكون جزئية أي خاصة بقومية معينة .

انطلاقاً من هذه العناصر يمكن تصنيف النظريات القومية إلى ثلاثة " أنماط " تقوم على توليفة معينة من عوامل تكوين الأمم والسياق التاريخي لها ، ونموذج العلاقة بين القوميات ، أي ثلاثة أصناف من المفاهيم الأساسية وهي :

أولاً – المفهوم الأساسي : (دولة – أمة) في الفكر السياسي الغربي الرأسمالي :

ويربط هذا المفهوم بين الجانبين المكونين له ربطاً جدلياً تاريخياً ونستطيع أن نلمح هنا الرابطة الأساسية بين المفهوم القومي للأمة ، والمفهوم السياسي للدولة ، بحيث تقوم بينهما علاقة ارتباط لا انفصام لها وهذا المفهوم الأساسي هو خلاصة الخبرة السياسية والأوروبية ، وله تطبيقان أساسيان هما :

أ- النموذج الأول : هو النموذج الفرنسي – البريطاني :

ويعرف بالنمط الليبرالي ، وتمثله التجربة الفرنسية البريطانية وفيه نجد أن الدولة تصاحب الأمة أو ترادفها في خط سيرها التاريخي ، بل أن الدولة لعبت دوراً أساسياً في اكتمال تكون الأمة أي ان الدولة أنشأت أمة إلى حد كبير .

ولقد تم ذلك تاريخياً من خلال تطبيق مبدأ سيادة الشعب والذي أدى في النهاية إلى بناء نموذج ليبرالي في الممارسة السياسية ارتبطت فيه الليبرالية بالقومية ارتباطاً عضوياً ، ويضيف الفكر الفرنسي تلويناً معيناً للفكرة يقوم على فكرة المشيئة أو الإرادة .

ب- النموذج الثاني : هو النموذج الألماني – الايطالي :

ويقوم على صياغة المفهوم الأساسي وفق نموذج يعتبر الدولة هي الكائن المعبر عن كمال العقل ، ومن ثم فهي التجسيد الأعلى للقومية . ووفق هذا النمط غير الليبرالي ، نجد أن الأمة تنشيء دولة وبعبارة أخرى فإن القومية تتبلور سياسياً في شكل دولة ، ولكن بناءً على وحدة ثقافية نفسية . فالدولة هنا هيتتويج لعملية التطور التاريخي ، بحيث تبدو وكأنها اكتمال لظاهرة القومية من الناحية السياسية ، ونظراً للدور الأساسي والمهيمن للسلطة السياسية في توحيد الأمة الألمانية إنطلاقاً من مملكة " بروسيا " التي اعتبرت محط الأنظار ومعقد الآمال للشعب الألماني في مختلف المقاطعات والإمارات الألمانية التي بلغ عددها حوالي (٣٠٠) إمارة ، فلذلك اعتبرت الدولة البروسية ثم الدولة الألمانية ، وكأنها الخاتمة المنطقية للتطور التاريخي كله .

وبهذا المعنى لم تعد الدولة في الفكر السياسي الألماني والفلسفة الألمانية وخاصة كما تناولها " هيجل" مجرد كائن سياسي ولكنها مبدأ روحي يعبر عن كمال العقل الكلي الباحث عن ذاته .

ونظراً لما رافق عملية إقامة الدولة القومية في المانية بصفة خاصة من معاناة من جراء تدخل كل من امبراطورية النمسا والمجر ، وفرنسا في ألمانية ، فقد اعتبر النضال الألماني نضالاً من أجل إثبات الهوية الألمانية ، كهوية قائمة على الثقافة ، وعلى الميراث الغني بالأمجاد المشتركة ، وبالتالي اللغة . ومن هنا لعبت كل من الدولة واللغة دوراً مسيطراً في مسيرة الدولة الألمانية .

ويتضح من هذين النموذجين الآتي :

١- إن الأول يعلي من قيمة الإرادة السياسية التي تقيم السلطة وفق مبدأ الليبرالية والقومية.

بينما النموذج الثاني : يعلي من شأن الهوية القائمة على الثقافة واللغة ، ومن شأن القوة المستندة إلى مجتمع متجانس وذي مؤسسة عسكرية مهابة ولذلك تكون اللغة والقوة السياسية كما تتجسد في الدولة هي أهم عناصر التفكير السياسي في القومية وفق (الطبعة) الألمانية والإيطالية.

٢- إن كلا النموذجين السابقين يقوم على مفهوم أساسي مشترك هو مفهوم " دولة – أمة " وهو ما يتضح من مصطلح الدولة القومية . وكما لاحظ " ساطع الحصري " فإن مشكلة " الإلزاس واللورين " كان لها تأثيرها في إحداث نوع من التمايز بين النموذج الفكري الفرنسي والنموذج الألماني بشكل خاص .. فقد كانت فرنسا تدافع عن بقاء الإلزاس ضمن حدودها استناداً إلى الإرادة السياسية ، بينما كانت ألمانية تنادي باستعادة الألزاس استناداً إلى اللغة .

ثانياً – المفهوم الثاني (الطبقة – الدولة – الأمة) في الفكر الماركسي :

ويمثل هذا المفهوم أساساً النظرية الماركسية في القومية حيث يمكن القول باختصار : إن الطبقة الإجتماعية الديناميكية أو الحركية في مرحلة تاريخية معينة ، هي مرحلة التطور الرأسمالي أو البرجوازي ، وهي الطبقة (الرأسمالية أو البرجوازية) تنشيء كياناً سياسياً متمثلاً في الحياة الاقتصادية المشتركة ، والسوق القومية الموحدة ، ومن هذا الكيان (السياسي والاقتصادي) تنبثق الأمة .

ويوجد عدد من الاتجاهات السياسية الماركسية بخصوص القومية تختلف كثيراً فيما بينها ، ولكنها تتفق في أنه لا وجود للأمة بدون ترابط اقتصادي مشترك كسمة محددة لا يمكن العدول عنها ولذلك بالرغم من الاختلافات بين " ستالين " وماركسيين آخرين مثل " سمير امين " الذي أدخل تعديلاً على النظرية الماركسية التقليدية في شكلها " الستاليني " بحيث جعل الأمة غير مرتبطة بالرأسمالية بالذات ولكن يمكن أن تنشأ في أطوار مختلفة وبواسطة طبقات متباينة .. إلا أن الإتفاق حول المحتوى الطبقي والاقتصادي للقومية ، هو أهم ما يميز الإتجاه الماركسي العام في هذه القضية ، وتبرز الاختلافات فيما عداها مثل الموقف من ضرورة الدولة أو الكيان السياسي كشرط لوجود الأمة .

ثالثاً - المفهوم الثالث (الجماعة البشرية القوم – الدين – الأمة) في الفكر السياسي العربي :

وهذا النمط هو أقرب ما يكون إلى نمط نظريات القومية العربية رغم اختلافاتها ، إذ تنقسم هذه النظريات في ضوء هذا المفهوم الأساسي المزدوج إلى اتجاهين عريضين هما :

أ- الاتجاه الأول :

ويربط القومية العربية بالقوم ، أي نوعية الجماعة البشرية (أي تجاوزاً الجماعة الإثنية) ، وهي الجماعة التي وجدت أصلاً في شبه الجزيرة العربية وانطلقت من جنوبها الغربي (منطقة اليمن حالياً) بصفة خاصة في جميع الاتجاهات قبل وبعد الإسلام ، فنشرت الخصائص السلالية كما نشرت اللغة العربية ، وكونت مع الآخرين تاريخاً عربياً مشتركاً وحضارة عربية عامة وكانت من أبرز حلقاتها الحضارة الإسلامية حينما تولت هي نفسها نشر الإسلام فكأن الإسلام هو أحد التجليات الثقافية الحضارية للجماعة العربية .

ب- الاتجاه الثاني :

وهو يربط بصفة عامة بين القومية العربية والإسلام ويعتبر أن تكوين الأمة تابع لانتشار الإسلام وتفاعلاتها الإجتماعية المتمثلة في نمط الحضارة العربية الإسلامية . أي هي عملية تابعة بالمعنى الفلسفي والتاريخي لظهور الإسلام الديانة ، وانتشار الإسلام الحضارة ، ويعتبر هذا الاتجاه القومية العربية أحد أبعاد الحضارة الإسلامية وإن الفكر القومي الأصيل هو ذلك الفكر الذي يستمد منابعه من مصادر إسلامية صافية .

وبعد تناول النماذج الثلاثة الأساسية السابقة لنظريات القومية نقدم نموذجاً اشتقاقياً في محاولة تفسيرية الواقع السياسي في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، ثم نموذجاً خامساً يقدم إطاراً مقترحاً له طبيعة تركيبية .

النموذج الرابع :

ويعكس التطور السياسي في مجتمعات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية : المرحلة قبل القومية (Per – Nationalism phase) ويمكن أن نعبر عنه بأنه :

نموذج الكيان السياسي للأمر الواقع De – Facto

فهو يمثل واقعاً قائماً ، وإن كان لا يستند إلى أساس صحيح للشرعية السياسية والاجتماعية . سواء من حيث عشوائية الحدود (الموروثة من العصر الاستعماري) أو من حيث اختلاط التركيب العرقي والقبلي ، أو عدم انتظام قاعدة الموارد وهذا الكيان يحاول خلق شرعية على أساس الدعوى القومية (دولة قومية) ، ولكن ليس هناك ما يضمن التطور بإتجاه استكمال ملامح التطور القومي بأن يتحول المجتمع السياسي إلى أمة .

النموذج الخامس (نموذج تفسيري مقترح) :

في مواجهة النموذجين الأساسيين للفكر الرأسمالي الغربي (سواء في طبقته الليبرالية ممثلة في التجربة البريطانية – الفرنسية أو في طبقته المحافظة ممثلة في التجربة الألمانية – الايطالية) والفكر الماركسي أو المادي التاريخي وكذا في مواجهة الفرعين الرئيسين للنموذج التفسيري الشائع في الفكر السياسي العربي (الجماعة البشرية الانتماء الديني الاسلامي) فإننا نقترح نموذجاً تفسيرياً متكاملاً يضع بعين الاعتبار العوامل المتعددة حسب المجموعات التالية :

أولاً – عوامل التوحد البشري الذاتي (اللغة ، الثقافة ، التكوين النفسي)

ثانياً – عوامل التوحد الموضوعي (الإقليم ، الإقتصاد ، الكيان السياسي)

ثالثاً – عوامل التوحد الذاتي – الموضوعي عبر التاريخ (المقترب الحضاري)

حيث تتفاعل هذه العوامل بمجموعاتها الثلاثة فتحقق الانصهار القومي للمجتمع وإذا غابت إحدى المجموعات الثلاثة فإن هذا يؤدي إلى تعطيل التكوين القومي للمجتمع كأمة .

الفصل الثاني

عرض وتقييم لعوامل القومية في الفكر السياسي العربي

هناك عشر عوامل يدور حولها الجدل وحول أيها يعتبر عاملاً من عوامل تكوين الأمة ، أو عوامل القومية وهي :

١- اللغة ٢- السكان ٣- الأصل ٤- الأرض ٥- اقتصاد مشترك ٦- الحضارة ٧- الدين ٩- التكوين النفسي ١٠ – الوعي القومي .

ويدور الجدل حول الوزن النسبي لكل من هذه العوامل في إطار تكوين الأمم عموماً وفي إطار تكوين أمة معينة بشكل خاص ، كما يدور الجدل حول مضمون كل عامل من هذه العوامل في إطار علاقته بالعوامل الأخرى .

وفيما يلي نقدم كلمة موجزة عن كل عامل من هذه العوامل وأهم النقاط التي أثيرت بشأن وما يمكن أن ننتهي إليه من رأي تأصيلي حوله .

وتجدر الإشارة إلى أننا سوف نعتمد هنا على ما دار بشأن هذه العوامل في الكتابات العربية وفي عينة منها بالتحديد ، وذلك نظراً لأن موضوعنا هو القومية العربية وليس القومية بشكل عام ، فنحن لا نقدم مسحاً لما دار بشأن هذه العوامل في أدبيات النظرية السياسية والايديولوجيات السياسية ، وإنما في الأدبيات المتصلة بالقومية العربية وفيما يلي نتناول هذه العوامل :

أولاً – اللغة :

العرض الكلاسيكي لعامل اللغة هو مرجع ساطع الحصري (آراء وأحاديث في القومية العربية) ونجد تمثيلاً لفكره في هذه الدراسة ، ويذكر ساطع الحصري ما يلي :

" إن الأمم تتميز بعضها عن بعض في الدرجة الأولى بلغتها وأن حياة الأمة تقوم قبل كل شيء على لغتها ، وإن أضاعت أمة من الأمم لغتها وصارت تتكلم بلغة أخرى تكون قد فقدت الحياة واندمجت في الأمة التي اقتبست عنها لغتها الجديدة ثم يؤكد (ص ٢٢٠) قائلاً :

" إن اللغة هي روح الأمة ، إنها بمثابة محور القومية وعمودها الفقري وهي من أهم مقوماتها وشخصيتها " .

من هذا الرأي الكلاسيكي ، لأبرز مؤسسي القومية العربية والفكر القومي الكلاسيكي العربي نجد أن المفهوم التقليدي يربط بين اللغة والقومية رباطاً عضوياً ويعتبر أن اللغة هي أساس تكوين الأمة وتجدر الإشارة إلى أن ساطع الحصري يجعل من ثنائية اللغة والتاريخ عماداً

لنظريته في القومية والتي تقف كما يرى الكثيرون في مواجهة النظرية الفرنسية القائمة على الإرادة أوالمشيئة ، والنظرية الألمانية القائمة على اللغة أساساً وقد جاء أقوى رد على هذا المفهوم التقليدي عن اللغة وموقعها في القومية على يد المفكر العربي الماركسي " إلياس مرقص " في كتابه (نقد الفكر القومي " ١" ساطع الحصري) .

ونجد عرضاً موجزاً لرأيه ضمن ندوة مجلة الوحدة حول نقد الفكر القومي – ابريل ١٩٨٥.

وخلاصة ما يقول " إلياس مرقص " :

" إن اللغة في حد ذاتها ليست أساس تكوين القومية وأن أحد نقاط الضعف في الفكر القومي العربي هو التركيز على اللغة " القومية إلى حد إعطاء اللغة العربية دوراً سحرياً في توحيد العرب . ويرى أن المفكرين القوميين نظروا إلى التعريب باعتباره مجرد انتشار للغة العربية ويقول في هذا الشأن :

" إن المفكرين القوميين تحدثوا عن كيف تعرب الفلاحون ولكنهم لم يوضحوا كيف تفلح العرب ؟ " ص ٦٤ .

ومن الجدير بالذكر إن إلياس مرقص مفكر ماركسي ويؤمن في نفس الوقت بوجود القومية العربية والأمة العربية .

ونستطيع أن نذكر موقفاً آخر " لنديم البيطار " في كتابه (حدود الهوية القومية) حيث ذكر أن اللغة لا تخلق التاريخ وإنما التاريخ يخلق اللغة ، وان دراسة تجربة الوحدة الإيطالية والوحدة الألمانية تبين أن اللغة لم تكن عاملاً حاسماً في القومية والوحدة القومية ، وأن الدليل على ذلك ، أن هناك عدة أمم تشترك في لغة واحدة وأن هناك أمة تقوم على أكثر من لغة ، وهي مجتمعات التشابك اللغوي كسويسرا وبلجيكا .

وفي النهاية نستطيع القول أن اللغة عامل أساسي من عوامل تكوين الأمم ولكن في إطار تفاعلها الاجتماعي التاريخي مع عوامل أخرى في السياق العام لتكوين الأمة ، علماً بأن اللغة ووزنها النسبي يختلف من حالة لأخرى ، فلا شك أن وزنها النسبي كبير في حالة الأمة العربية ولكن على ألا تفهم اللغة هنا فهماً مثالياً مجرداً يحولها إلى " جوهر ثابت " بالمعنى الفلسفي ، وإنما هي أحد التجليات في التطور الثقافي الاجتماعي للمجتمع العربي وفي التوجه التاريخي لتكوين الأمة .

ثانياً – الأصل (العرق) :

ويمكن أن نوحد بين هذا العنصر وبين عنصر آخر هو " السكان أو البشر أو الناس " مع اختلاف بينهما في ناحية معينة وهي الناحية التي أكد عليها " هوراس ديفيز " في كتابه " القومية " والذي ترجمه " سمير كرم " في سنة ١٩٨٦ . حيث يذكر أن من عوامل القومية وجود حد أدنى معين من السكان ، أي حجم معين للقوة البشرية إذا نزلت عنه لا تعتبر الجماعة البشرية أمة

، وفيما عدا هذا الاستثناء يمكن بشكل عام القول أن مسألة البشر تثير نفس المشكلات التـي يثيرهـا العرق ونقصد هنا طبيعة الجماعة البشرية المكونة للأمة .

فهل من اللازم أن تتكون الأمة من جماعة بشرية متجانسة في الأصل أو العرق ، أم أنـه لا وجـود لأجنـاس متمـايزة أصـلاً ؟ وإذا سلمنا بعـدم وجـود أجنـاس صـافية ، فهـل يعتبـر وجـود قسم غالب معين من الأمة ينتمي إلى أصل مشترك ومتمتعاً بالديناميكية ، هل يعتبر عـاملاً من عوامـل القومية ، وإذا كان كذلك فهل هو عامل أساسي أم ثانوي ؟

وهنـاك مواقـف عديـدة أساسية مـن موضـوع الأصـل ، ولعـل العامـل الـذي أثـر علـى تيـار التفكير القومي فيما يخص مسألة الأصل والعرق هو العامل الدولي والذي ينصـرف إلـى انتشـار (النازية) بزعامة " هتلر " في ألمانية في الثلاثينيات ، فالأمة عند هتلر تقوم علـى أسـاس عرقـي . وإنطلاقاً مـن اعتقـاده فـي سـمو العـرق الآري وبأنـه أكثـر صـفاء ونقـاء مـن الأجنـاس الأخـرى فقد اعتبر أن الشـعب الألمـانـي أعلـى شـعوب العـالم مرتبـة لأنـه أكثـر انتمـاء إلـى حقيقـة الجنس الآري النقي أما بقية شعوب العالم فقد صنفها على أساس قربها أو بعدها من الجنس الآري .

ولعل هذا العامل الدولي قد أثر على تيار التفكير القومي في الوطن العربي .

وإن هذا التأثير من العامل الدولي قد خلق تيارات مختلفة في الوطن العربي سواء بالموافقة أو بالرفض فيما يخص موضوع الأصل أو العرق . فنجد مثلاً فـي المغـرب العربـي تفـاوت الآراء بشأن البربر (الأمازيغ) فمنهم من يرى أنهم ليسوا عرباً والبعض الآخر يرى أنهم عرب أقحاح.

وكذلك الحال في مصر حيث يرى البعض أن المصريين ليسـوا عربـاً وأنـهم منحـدرون مـن أصل (فرعونـي) .

وفـي المشـرق العربـي كـان الحـزب القـومي السـوري بقيـادة " انطـوان سـعادة " يـرى أن السوريين أمة مختلفة عن العرب .

ومن الجدير بالذكر أننا لا نتناول في هذا المقام الأكراد باعتبارهم ليسوا عرباً ، وأيضاً أهل جنوب السودان باعتبارهم زنوجاً ، مع تأثر هؤلاء وأولئك بالعرب والعربية تأثراً عضوياً .

أمـا بشـأن المواقـف الأساسية مـن موضـوع وحـدة الأصـل فنسـتطيع أن نميّـز بـين المواقـف التالية :

الموقف الأول :

هو موقف وسط وهو أيضاً موقف كلاسيكي وقد استعرضـه " إلبـرت حـوراني " مثلاً فـي كتابـه (تـاريخ الشـعوب العربيـة) ، ويقـول حـوراني (انظـر مجلـة المسـتقبل العربـي – العـدد (١٦٠) في صفحة ١٤٠) : إن أحد أهم ركائز الدعوة إلى القومية العربية هـي ان الأمـة العربيـة كانـت قـد اكتسـبت هويـة واضـحة قبـل ظهـور الإسـلام بمئـات السـنين وأنـهـا كانـت تحتـل منـاطق جغرافية محددة في تلك الفترة ، وأن الإسلام عطاء عربي في مرحلة من تاريخ هذه الأمة .

وهذا الموقف يعتبر أن الأمة العربية اكتسبت هويتها القومية قبل ظهور الإسلام بمئات السنين وان انتشار الإسلام واللغة العربية بعد ذلك يمثل نوعاً من الامتداد لهذه الهوية العربية الأصيلة .

وهذا موقف كما هو واضح يأخذ منحى توفيقياً من مسألة العرق بمعنى وجود عرق عربي وصافي ونقي قبل الإسلام وأن الاسلام عطاء إنساني محدد للعرب ويمكن القول أن وجهة النظر هذه قد سادت في التفكير القومي بالمشرق العربي ، كما انها تخللت كثيراً من كتابات حزب البعث باعتبار أن الأمة العربية هي امتداد موسع في التاريخ للجماعات العربية الأصيلة في شبه الجزيرة العربية .

الموقف الثاني :

هو الموقف الذي يضع وحدة الأصل مقوماً أساسياً من مقومات الأمة ويعتبر أن الأمة العربية هي تلك الجماعة ذات الأصل العرقي المشترك .

وينقسم هذا الموقف لموقفين فرعيين :

الموقف الفرعي الأول :

ويمثل " المدلول الضيق للأصل العربي " ويعتبر أن العرب هم أولئك القادمون بالهجرة من شبه الجزيرة العربية وان ما عداهم ليسوا عرباً ، ومن الطبيعي أن يستبعد هذا المفهوم من حقل الأمة العربية معظم أبنائها الحاليين من مصر والمغرب العربي الكبير والسودان . وليس لهذا الموقف تجسيد محدد في كتابات الفكر القومي العربي وإن كان يمكن التماسه لدى بعض التعبيرات في وسائل الإتصال الجماعي ولدى بعض المثقفين عموماً .

الموقف الفرعي الثاني :

ويمثل " المدلول الواسع لوحدة الأصل " إذ يذكر بأن قاطني المنطقة العربية هم جميعاً من أصل واحد هو الجماعة السامية في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية ، وأن هذه الجماعة السامية كانت تقوم بهجرات متصلة قبل الإسلام بآلاف السنين في جميع الاتجاهات المكونة للإقليم العربي الآن . وبناء على ذلك فإن سكان العراق القديم هم من أصل عربي وسكان منطقة سورية وساحل المتوسط السوري هم عرب وأيضاً فإن المصريين عرب قلباً وقالباً بالأصل واللغة ، وأن جميع البربر في المغرب العربي هم عرب أيضاً . ومن أبرز دعاة هذا الموقف هو " د . صوفي أبو طالب " في كتابه " دروس في المجتمع العربي " وكذلك " د . علي فهمي خشيم " في كتابه " آلهة مصر العربية " ، و " عثمان سعدي " في كتابه " عروبة الجزائر " ويمكن كذلك أن نضيف الكتب التعليمية في مادة التاريخ في ليبيا . وتجدر الإشارة إلى أنه من الناحية النظرية البحتة لا نستطيع القول بأن هناك أجناساً صافية في العالم ، وقد حسمت الأبحاث العلمية الحديثة هذا الموضوع تماماً وأقرت بتداخل الأجناس نتيجة اختلاط الجماعات البشرية ومن ثم ظهرت الأمم والشعوب نتاجاً للتفاعل والتواصل البشري واسع النطاق .

أما من الناحية العملية فإن القول السابق لا يمنع من أن جماعة بشرية معينة قد تكون لها خصائص معينة ومحددة بالمعنى الإثنولوجي " في علم الأجناس " وهذه الجماعة يمكن أن تلعب دوراً تاريخياً مهماً في تكوين أمة معينة ، وأن عامل الإنتماء المشترك بهذا المعنى أو الاعتقاد في هذا الانتماء لا بد أنه يقوي من نسيج الأمة ورابطة القومية . ولكنه مع ذلك ليس شرطاً لتكوين الأمة أو ظهور القومية .

وغالباً ما تتكون الأمم نتيجة اختلاط عناصر تنتمي لأصول متباينة .

وبالنسبة للوطن العربي تحديداً فقد حدثت تفاعلات بشرية وثقافية عميقة بين الأقسام المكونة للمنطقة العربية الآن قبل ظهور الإسلام ويتمثل ذلك فيما هو مسجل على الآثار المصرية مثلاً في " تل العمارنة " من كتابات ورسائل باللغة المسمارية والآرامية كما يتضح في التفاعلات العسكرية والسلمية التي قامت في إطار الدول المصرية القديمة وإمبراطوريات العراق القديم من بابلية وآشورية على امتداد الرقعة الممتدة فيما بين النهرين حتى حدود ليبيا الحالية . وكذلك هجرات الفينيقيين للساحل المتوسطي لشمال أفريقيا في ليبيا وتونس الحالية . وقيام حضارة قرطاجنة بالإضافة إلى هجرات سكان المغرب القديم أو بعضهم بإتجاه ساحل البحر الأحمر . وقد تدعمت هذه التفاعلات العميقة بعد ظهور الإسلام حيث تكثفت الهجرات العربية إلى كافة المناطق وخاصة مصر والمغرب . نخص بالذكر منها ما حدث في عهد الفاطميين وبصفة أخص هجرات بني هلال وبني سليم القادمة من شبه الجزيرة العربية إلى مصر والتي وجهها المستنصر بالله إلى المغرب ، وكذلك لا ننسى هجرات بعض القبائل البربرية مثل " كتامة " إلى مصر في عهد " المعز لدين الله الفاطمي " وقائده " جوهر الصقلي " .

إن كل ذلك يدل على أن الهجرات البشرية من شبه الجزيرة العربية قد لعبت دوراً اجتماعياً وثقافياً هائلاً في التكوين الإجتماعي للأمة العربية الآن . ولكن هذا لا يصل بنا إلى حد القول بأن الأمة العربية الحالية هي مجرد امتداد موسع للجماعة البشرية العربية في جنوب غرب شبه الجزيرة العربية .

وهكذا إذن فالمدلول الواسع لوحدة الأصل وإن كان قد تم تحليله ثقافياً كمدخل من مداخل نظرية القومية العربية إلا أنه لا يمثل فكراً سياسياً عرقياً على نحو ما رأينا في الفكر السياسي القومي العرقي أو العنصري عند النازيين والفاشيين ، وهذا ما يبرر القول أن الفكر القومي العربي لم يشهد بشكل عام النزعة الشوفينية .

والخلاصة : إذن أن وحدة الأصل بالمعنى العرقي ليست مقوماً من مقومات القومية العربية ، ولكن وجود العرب الأقحاح بين ظهراني السكان في المنطقة يعتبر عاملاً مدعماً وإن كان ثانوياً في تكوين الأمة العربية .

ثالثاً : الأرض :

من الضروري إقامة الجماعة المكونة للأمة بشكل عام ومستمر ومنتظم على رقعة معينة من الأرض ، ولا يعني هذا أن تكون كل الجماعات الفرعية في الأمة مستقرة جغرافياً ، ولكن المهم أن تكون الكتلة الرئيسية متمتعة بالاستقرار الإقليمي وأن يكون التنقل في حدود الرقعة

الجغرافية المحددة (الأرض) والتي تتحول في ذاكرة المجموعة البشرية إلى ما نسميه " الوطن" .

ونجد في الكتابات العربية عدة وجهات نظر في هذا الشأن :

وجهة النظر الأولى :

وهي وجهة نظر يمثلها الفكر القومي الكلاسيكي ، وعلى رأسه المفكر الكبير " ساطع الحصري " والذي من جهة أولى لا يعتبر الأرض أو الإقليم من مقومات الأمة والقومية ، غير انه من جهة ثانية يجعل الأرض أساساً لحقيقة موضوعية ولشعور ذاتي يقف جنباً إلى جنب مع القومية ونقصد بذلك الوطنية والشعور الوطني ، وقد اعتبر أن الوطنية ترتبط بالأرض وأن محتواها عاطفي بدرجة أساسية .

ونجد تأصيلاً لهذا الموقف عند ساطع الحصري إذ يقول في بحثه " الوطنية والقومية " وهو أول أبحاث كتابه " آراء وأحاديث في الوطنية والقومية " ص ٩ ما يلي :

" الوطنية والقومية من أهم النزعات القوية التي تربط الفرد بالجماعة وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل ، ويضحي في سبيلها .. ومن المعلوم أن الوطنية هي حب الوطن والشعور بارتباط باطني نحوه أما القومية فهي حب الأمة والشعور بارتباط باطني نحوها ، والوطن من حيث الأساس إنما هو قطعة من الأرض ، والأمة في حقيقة الأمر إنما هي جماعة من البشر ، فنستطيع أن نقول أن الوطنية هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف بإسم الوطن ، والقومية هي إرتباط الفرد بجماعة من البشر تعرف بإسم الأمة .

ويتأكد هذا الموقف الكلاسيكي من الأرض في موقف أحد المفكرين القوميين بعد جيل ساطع الحصري وهو " محمد أحمد خلف الله " حيث يقول في " مجلة الفكر العربي في عددها الخاص عن نقد الفكر القومي (ابريل ١٩٨٥) " ما يلي " إن القوميين دائماً كانوا يفرقون بين الوطنية والقومية ، ويرون الوطنية اتصالاً بالأرض ، ويرون القومية اتصالاً بالناس ، فهناك خصوصية في الفكر العربي فيما يختص بالأرض ، وعندما نتحدث عن الدولة أو الوطن فلا بد أن نتحدث عن الأرض ، أما عندما نتحدث عن القومية فمن الممكن أن نتحدث عنها بدون الأرض ولذلك ترى أن الشعوب الموزعة مثل الأرمن لها قوميتها وليس لها أرضها "

وجهة النظر الثانية :

هي وجهة يعبر عنها المفكر القومي " عصمت سيف الدولة " ويعتبر ان الأمة تتكون نتيجة استقرار البشر على أرض معينة لتكوين حضارة متميزة ، ولذلك فالأمة تتكون من عنصرين هما الشعب والوطن ، فالشعب هو حصيلة التفاعل البشري الحضاري ، والوطن هو حصيلة هذا التفاعل نفسه على الأرض . وهنا تصبح الأرض وطناً والوطن يصبح عنصراً في الأمة .

وتم تأصيل هذا المفهوم عند " عصمت سيف الدولة " في كتابه " نظرية الثورة العربية " حيث يقول " إن عامل الأرض هو العنصر الحاسم والمميز في مسيرة الأمة من الطور القبلي إلى

الطور القومي ، وبينما تعتمد القبيلة على التجوال والترحال والرعي ، فالقومية ترتبط بالاستقرار والنشاط الزراعي ، وعلى ذلك يكون ارتباط جماعة بشرية معينة برقعة معينة من الأرض تختص بها ولا ينازعها أحد بشأنها هو القاعدة الأولية التي لا تقوم القومية إلا عليها " .

وباختصار فإن وجهة النظر هذه تنتقل بعنصر الأرض من الحيز العاطفي المتمثل بالنزعة الوطنية إلى الحيز الإجتماعي التاريخي المتمثل في استقرار السكان . ويعتبر هذا الرأي من أقرب الآراء لحقائق الأمم حيث يأخذ عنصر الأرض معناه من خلال الانتقال من الطور القبلي القائم على الترحال والتنقل إلى الطور القومي القائم على الاستقرار فوق أرض معينة لبناء حضارة محددة وهو مناط تكوين الأمة .

وجهة النظر الثالثة :

عبر عن هذه الوجهة الماركسيون العرب من ذوي النزعة القومية خاصة " الياس مرقص " و " حسين مروة " فالأرض عندهم هي قاعدة النشاط الانتاجي .

وكما يقول حسين مروة في العدد الخاص من مجلة الوحدة عن " نقد الفكر القومي " صفحة (٧٥) :

" إن الاتباط بالأرض هو بالانتاج وأن حياة العرب تحولت تحولاً عميقاً وواسعاً بعد الاسلام نتيجة الارتباط بالانتاج المادي " وقد أضاف الياس مرقص : " إن عامل الأرض يتبعه تمايز الجغرافيا والتاريخ " ويقول : " إن مسألة الأرض أو الإقليم مهمة جداً وانه يجب إبراز وإدماج هذا البعد الجغرافي والإنتاجي والتاريخي في التحليل القومي " .

إذن فإن الأرض عند الماركسيين العرب عامل مهم ملحق بعامل آخر هو الإقتصاد بمعنى ان الحياة الاقتصادية المشتركة تقوم على الأرض وغني عن الذكر أن مفهوم الأرض مفهوم واسع يشمل أيضاً الطبيعة والموارد الطبيعية . ولهذا فإن الأرض عند الماركسيين العرب تمثل القاعدة المادية للنشاط الاقتصادي الذي تتكون منه الأمة .

رابعاً الاقتصاد المشترك :

وهنا نجد وجهات النظر التالية :

الوجهة الأولى :

هي الاتجاه القومي الكلاسيكي حيث يذكر ساطع الحصري أن القومية لا تقوم أساساً على المنفعة . وإنما تقوم على العاطفة التي ترتكز على الاشتراك في اللغة والتاريخ ، وان القومية التي تقوم على المنفعة – إن وجدت – فهي زائفة . وبالتالي فهو يستبعد عامل الاقتصاد المشترك كأساس من أسس تكوين الأمة والقومية .

ويؤكد د . محمد خلف الله هذا الأمر ويقول : " إن القومية لا ترتبط بالتطورات الاجتماعية ، وأن الحركة القومية ليس لها موقف من اتجاهات التطور الاجتماعي مستقبلاً " .

الوجهة الثانية :

يمثلها الاتجاه الماركسي ونميّز فيه ثلاث اتجاهات فرعية : أولها الاتجاه الممثل لفكر ستالين : وهي وجهة النظر التقليدية في الفكر الماركسي ، إذ تعتبر أن الأمة تتكون في إطار سعي البرجوازية نحو إقامة حياة اقتصادية مشتركة تتجسد في السوق القومية المشتركة . وعلى هذا النهج سار الشيوعيون العرب عموماً وطرحوا هذا الفكر لفترة طويلة وخاصة في الخمسينات والستينات إبان تصاعد المد القومي الناصري وقيام الجمهورية العربية المتحدة . ويذهب هذا الاتجاه إلى حد إنكار وجود أمة عربية تأسيساً على عدم وجود بورجوازية عربية مستقلة تقيم السوق القومية الموحدة .

الاتجاه الفرعي الثاني يمكن أن نطلق عليه " الماركسية ذات الاتصال بجذور ستالينية " ويمكن أن نعتبره ستالينية منقحة . وهو أكثر قرباً من الفكرة القومية العربية من الإتجاه الأول وملخص دعواه أن العرب يشكلون جماعة قومية في طريقها لتكوين أمة ولكنها لا تعتبر الآن أمة ، ونجد تمثيلاً لهذا الرأي لدى " د . فؤاد مرسي " في كتابه نظرة ثانية إلى القومية العربية فيقول في الصفحة (١٥) :

" إن العملية القومية أي عملية تشكيل الأمة العربية تشق طريقها بصعوبة بالغة حتى الآن " وفي الصفحة (١٧) يقول " الأمة مقولة تاريخية تنتمي إلى عصر محدد هو عصر الرأسمالية الصاعدة " ويقول أيضاً ص ١٦ " الأوضاع الاقتصادية العربية في القرون القليلة الماضية لم تستطع أن تتحول إلى نظام رأسمالي نظراً لعدم تفوق الإنتاج السلعي وعدم سيادته وأن هذا الانتاج السلعي لم يستطع تصفية الأسواق المفتتة الضيقة لحساب سوق داخلية موحدة فالسوق هي المدرسة الأولى التي تتعلم فيها الرأسمالية الناشئة دروس الوطنية والقومية " وفي مقدمتها " فجر اليقظة القومية " و " العروبة في العصر الحديث " .

أما الإتجاه الفرعي الثالث داخل الماركسية فيمثله د . سمير أمين وهو مفكر ماركسي عربي بارز قدم نظرية كاملة في تطوّر أنماط الانتاج وهو رائد من رواد نظرية " التبادل اللامتكافىء " و " التطوّر اللامتكافىء " .

وقد قام سمير أمين بتنفيذ التنظير الكلاسيكي لستالين ، الذي حدد خمس أنماط تاريخية للإنتاج فقط ، فقد أدخل " سمير أمين " النمط المسمى بالانتاج الخراجي (وهو يرى أن الأمم والقوميات تكونت في إطار نمط الإنتاج الخراجي الذي يقوم بين المشاعية البدائية والرأسمالية) ومن خلال كتاب سمير أمين " الأمة العربية " نجد أنه يفرق بين الجماعة الإثنية والأمة ، فالجماعة الإثنية (وهي التي ترجمها برهان غليون " القوم " في ثنايا ترجمته لكتاب " التطوّر اللامتكافىء " لسمير امين ..) تقوم على تضافر عدة مقومات هي :

١- الأرض المتصلة جغرافياً ، ٢- وحدة اللغة ، ٣- وحدة الثقافة .

وان الأمة تنشأ حينما يضاف إلى هذه العناصر الثلاث عنصر مهم وهو توفر الطبقة الاجتماعية التوحيدية وحيث يتفرع من وحدة هذه الطبقة عنصران أساسيان في تكوين الأمة والقومية هما " مركزية سلطة الدولة " و " الحياة الاقتصادية المشتركة للجماعة " .

وبتعبير سمير امين (ص ١٢٧ من كتاب " الأمة العربية ") : " تظهر الأمة إذا وجدت بالإضافة إلى اجتماع الشروط الأولية للاتصال الجغرافي المدعم باللغة والتي يبرزها التعبير الثقافي إذا وجدت في حضن التشكيلة الاجتماعية طبقة اجتماعية تهيمن على الجهاز المركزي للدولة وتؤمن الوحدة الاقتصادية لحياة الجماعة .. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه وبالاستناد إلى د . علي مختار في مقالته (حول مفهوم الأمة والقومية عند سمير امين) نستطيع أن نقول أن وجهة نظر سمير امين في القومية تقوم على ثلاث عناصر هي :

١- الأمة ظاهرة اجتماعية يمكن أن تظهر في كل مراحل التاريخ فهي لا ترتبط بشكل حتمي بنمط الانتاج الرأسمالي .

٢- إن الأمة توجد أينما توجد الطبقة الاجتماعية المهيمنة على جهاز الدولة المركزي والضامنة لوحدة الحياة الاقتصادية للمجتمع ، وهذه الطبقة ليس من الضروري أن تكون البرجوازية الوطنية . وهكذا فإن " سمير امين " يرى أنه بالنسبة للأمة العربية فإنها قد نشأت عندما ظهرت طبقة (التجار – المحاربين) وتفسير ذلك أن التجار أولاً أقاموا شبكات اقتصادية وسوقاً إسلامية من أقصى الوطن العربي الآن لأقصاه بل وشملت عموم المنطقة الإسلامية التي كانت واسطة العقد بين القارات الثلاث للعالم القديم " أوروبا أفريقيا وآسيا " .

أما المحاربون ، فهم المجاهدون الذين تسلحوا بالعقيدة واستطاعوا فتح مناطق جديدة وإضافتها للدولة الاسلامية . ونلاحظ أن طبقة (التجار – المحاربين) تمثل خليطاً من النشاط الاقتصادي والعسكري مما أدى لأن تكون التجارة والفتح هي أساس قيام الأمة العربية في عصر سيادة العالم الاسلامي . ولكن عند تقييمنا لسمير أمين نقول بأن التجارة والفتح مجرد شواهد أو رموز لأمر اوسع هو الثقافة ونمط الحضارة أو التاريخ الذي تحول لحضارة .

ولعل فكرة الطبقة التوحيدية تظهر أيضاً عند أحمد عبد المعطي حجازي في كتابه " عروبة مصر " حيث يرى أن الطبقة المدنية وهي طبقة سكان المدن أو الحضر هي الطبقة التي تمثل أساس تكوين الأمة ، وأهم المدن عنده دمشق ، بغداد ، القاهرة ، قرطبة ، فاس ، مكة ، المدينة .

٣- إن ظاهرة الأمة عملية قابلة للانعكاس ، فيمكن أن تتطور وتقوى ويمكن أن تضعف وتتلاشى تبعاً لما كانت الطبقة الاجتماعية المعنية قادرة على دعم قدرتها التوحيدية أو تفقد تلك القدرة تماماً . ونجد أن هذا العنصر عند سمير أمين مناقض للمفهوم السائد لدى الفكر القومي الكلاسيكي والذي يرى بأن الأمة مقولة " خالدة " .

ونستنتج مما سبق أن وحدة الحياة الاقتصادية شرط أساسي لتكوين الأمة عند سمير أمين ، غير أن وحدة الحياة الاقتصادية ترتبط (كما ذكر في ص ٢٢٥ من كتابه " الأمة العربية ") بتدعيم دولة قوية ، وبعبارة أخرى فإن سمير امين يجعل العناصر الأساسية لانبثاق الأمة وقوتها متمحورة حول قطبي الطبقة والدولة ، فإذا وجدت طبقة بدون هيمنة على الدولة فلن توجد أمة قوية ، وإذا وجدت دولة لكن بدون طبقة قيادية توحيدية فإنها لن تكون دولة قوية أيضاً ، وتجدر الإشارة إلى أن وجهة نظر سمير أمين تتضمن تغييراً أساسياً في وجهة النظر الماركسية التقليدية كما أبرزها لينين وستالين والتي تربط نشوء الأمم وبروز ظاهرة القومية عموماً بتكون النظام

الاقتصادي الاجتماعي الرأسمالي ، وحيث يكون تحقيق الطبقة الرأسمالية لوحدة السوق القومية هو العامل الحاسم في تكوين الأمة ونشوء القومية والنزعة القومية .

وبناء على ذلك فإن التصحيح الرئيسي الذي قدمه سمير امين على نظرية لينين وستالين هو أن الأمة والقومية ليست قاصرة على عصر الرأسمالية ، فهي يمكن أن توجد في أي عصر متى توافر شرط وجودها ، وهو الطبقة الاجتماعية القادرة على توحيد السلطة وتوحيد الاقتصاد . وهنا يتساءل سمير أمين عن شروط الدولة ، فيذكر ان اليونان القدماء تحققت لهم الأمة بفعل وجود الطبقة التجارية – رغم عدم وجود دولة موحدة – أما العرب فقد شكلوا أمة بدون شك ولكن بصفة مؤقتة ، في تلك الفترة التي حافظت عليها الطبقة الاجتماعية القيادية (طبقة التجار – المحاربين) على ديناميكيتها السياسية والاقتصادية ، وهنا يذكر سمير امين بصراحة (ص١٢٨) أن العالم العربي لم يكن أمة إلا خلال فترة قصيرة من تاريخه . وإن اختفاء الأمة العربية قد أحيا من جديد أمماً قديمة وأن مجموع العالم العربي قد تحول منذ القرن الثالث عشر وخاصة منذ السادس عشر إلى فسيفساء من الشعوب . (ص ١٢٩) ..

خامساً – الدين :

وما يهمنا هنا هو تقديم إشارات عن حالة القومية العربية أي موقع الدين في سياق تكوين الأمة العربية ، كما عرض في اتجاهات التفكير السياسي العربي .

وبداية نستطيع القول بأن الدين على المستوى العام له دور كبير في بروز خصائص الشخصية القومية ، حتى في اوروبا شرقاً وغرباً .

ففي الشرق الأوروبي نجد أن بروز الشعور القومي في البلقان قد ارتبط كما أوضح ساطع الحصري في كتابه " محاضرات في نشوء الفكرة القومية " ارتبط بالانفصال عن الكنيسة الارثوذكسية اليونانية ، كما أدى لإنشاء كنائس وطنية وإقامة الصلوات والتراتيل الدينية باللغات الوطنية يتضح هذا بصفة خاصة في بلغاريا ورومانيا أما في ألمانيا فإن حركة الاصلاح الديني كانت في جانب جوهري منها حركة للاستقلال الديني على أساس القومية وتتمثل في المذهب البروتستنتي الذي أفرز كنائس وطنية تعمل باللغات القومية أما في المنطقة العربية فإن الدين قد أثار جدلاً كبيراً من حيثموقعه في تكوين الأمة . ونجد هنا ثلاث مواقف كبيرة في الفكر السياسي العربي هي :

١- موقف الاسلاميين :

ونميز فيه الحركة الاسلامية الحديثة في قديمها وجديدها أما الحركة الاسلامية القديمة المتمثلة في الوهابية والسنوسية والمهدية أو ما يعرف بالاتجاه الديني السلفي الصافي مع نزعته الصوفية فإنه لم يتناقض إطلاقاً مع تبلور الشعور العربي الذي يرتبط بالديانة الاسلامية ، بالرغم من أنه لم يؤكد فكرة القومية لكن لا ننسى هنا أن العقيدة القومية لم تكن قد نشأت في هذا الوقت كإيديولوجية سياسية .

اما موقف الاسلاميين المعاصرين فإنه (برغم اللمحات النافذة لحسن البنا في تعاطفه مع القومية العربية) ، قد درجوا ربما بتأثير من فكر (المودودي) على نفي مبدأ القوميات والتأكيد

على وجود أمة واحدة هي الأمة الإسلامية ، وقد تبنى (سيد قطب) هذه النظرة وتبعه فيها قادة الحركة الاسلامية الجديدة .

٢- موقف الفكر القومي الكلاسيكي :

وقد أعطى الأولوية للعروبة على الإسلام ولكن مع اعتبار أن الإسلام لعب دوراً أساسياً في تكوين الأمة العربية بشكلها الحالي ونجد عند ساطع الحصري تأكيداً على هذا . أما حزب البعث العربي الاشتراكي في مراحله الأولى فقد أكد على لسان زكي الأرسوزي ثم ميشيل عفلق في مقالة (ذكرى الرسول العربي) على أن الإسلام تعبير عن الرسالة الحضارية الخالدة للأمة العربية والتي وجدت قبل الإسلام ويؤكد المفكر القومي التقليدي (محمد خلف الله) في كتابه عن (العروبة والاسلام) أن الإسلام هو النظام الديني للأمة العربية وأن المقومات الإلهية في الدين الإسلامي مستمدة من خصائص الحياة العربية بالذات .

٣- الموقف التوفيقي :

وهذا الموقف يعتبر أن الأمة العربية قد تكونت كحقيقة متميزة بفعل الإسلام وهو موقف د. محمد عمارة مثلاً والذي بلوره في مرحلة تالية للمرحلة التي تحدث فيها عن قومية بدون أمة عربية ، وذلك كما يتضح في بحثه عن (الاسلام والقومية العربية والعلمانية) . ويعبر (عصمت سيف الدولة) عن موقف توفيقي أكثر أصالة باعتبار أن النمط الحضاري الذي تشكلت في سياقه الأمة العربية هو نمط الحضارة الإسلامية .

٤- موقف سمير امين

الذي نشتقه ضمناً : - إذ يمكن أن نعتبر أن الإسلام لديه هو تلك الإيديولوجيا الميتافيزيقية لقوى التجار والمحاربين التي قامت الأمة في وقت ما ثم تفككت . وأن موقع هذه الميتافيزيقيا الأساسي في الحياة العربية يعود إلى مايسميه (شفافية علاقة الاستغلال الاقتصادي في المجتمعات **الخراجية**) .

أما عن تقييمنا نحن للموقف من الدين والقومية ، فإننا نريد أن نميّز في الدين الإسلامي بين زاويتين مختلفتين هما :

١- زاوية كونه محدداً للانتماء على المستوى الفردي حيث يعتبر المعتقد الديني في هذه الحالة قضية ذاتية يعبر عنها بأنها علاقة بين الإنسان وربه .

٢- زاوية كون الدين محدداً من محددات الهوية على مستوى الجماعة .

في المعنى الأول يمكن القول بأن الأمة العربية تتكون من مسلمين وغير مسلمين أما في المعنى الثاني فإنه ليس من المهم في المقام الأول المعتقد الفردي وإنما التلاحم التاريخي الحضاري في بناء نمط جديد للحياة الاجتماعية يترجم مصطلح (الحضارة العربية الاسلامية) . ومن خلال المحدد الأول لا يعتبر الدين الاسلامي من مقومات القومية حيث تظل القومية العربية بمظلتها المنتمين عقائدياً لأديان مختلفة أبرزها الإسلام .

أما من خلال المحدد الثاني فإن الإسلام كأساس تاريخي للحضارة العربية يعتبر عاملاً أساسياً وربما العامل الأساسي في تكوين الأمة العربية .

سادساً – الخصائص النفسية أو السيكولوجية أو السجايا النفسية :

وقد برز هذا العامل بصفة خاصة في سياق الحركة الأدبية واللغوية الرومانسية – أي المرتبطة بالوجدان والعاطفة – في أوروبا وخاصة في ألمانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حيث كانت وثيقة الصلة بما يسمى بالفلسفة المثالية . وهكذا وجدنا الكتاب والفلاسفة مثل (جوته – هيجل – هردر) يركزون على العامل السيكولوجي الذي يربط ما بين اللغة والشخصية القومية باعتباره المحدد الأساسي للأمة . وقد انتقل التركيز على هذا المفهوم من النظريات المثالية والرومانسية إلى النظرية الماركسية ولكن بصورة معدلة حيث أكد بعض الماركسيين على العامل السيكولوجي ومنهم " أوتو باور " وانتقد لينين هذا الموقف السيكولوجي بشدة أثناء سجاله مع " روزا لوكسمبورج " واتهمها بالتأثر بالنزعة السيكولوجية .

وقد جاء " ستالين " فوضع الخصائص النفسية المنطلقة من وحدة الثقافة باعتبارها أحد العوامل الرئيسية لتكوين الأمة . ويقول " هوراس ديفيز " في كتابه (القومية) إن انتقاد لينين لروزا لوكسمبرج وقوله بأنها تجاوزت العوامل الموضوعية إلى عامل ذاتي ينسحب أيضاً وبشكل غير مباشر على ستالين (المرجع المذكور ص ٩٤ – ١٠٠) . والحقيقة أن مسألة الخصائص النفسية قد وجدت تعبيراً لها في الفكر السياسي العربي القومي التقليدي تأثراً بالفكر الألماني الذي يعطي الأولوية لعامل اللغة والثقافة والخصائص النفسية في مواجهة العوامل التي نعتها الفكر القومي الكلاسيكي بأنها عوامل " منفعية " . ومع ذلك فإن هذا الفكر لم يضع الخصائص النفسية من بين العوامل الرئيسية للقومية العربية ويبدو أنه اعتبرها تابعة لقضية وحدة اللغة والتاريخ وغالباً ما يتناولها بشكل فرعي تحت مسمى " وحدة العادات والتقاليد " أو تحت بند " الشعور القومي " .

ويبلور " عصمت سيف الدولة " الموقف المتطور للفكر القومي بقوله " إن الخصائص أو السجايا النفسية ليست مقوّماً من مقومات الأمة وإنما هي من بين المعبرات عن الأمة وعن قوميتها " بمعنى أنه يعتبر الخصائص النفسية ليست مقوّماً من مقومات الأمة العربية وإنما هي من المعبرات عن الأمة وعن قوميتها " بمعنى أنه يعتبر الخصائص النفسية ليست مقوماً من مقومات الأمة وإنما هي من مظاهر التعبير عن القومية " وذلك في كتابه نظرية الثورة العربية (ص ١٣٣- ١٤٢) ونحن نميل أيضاً إلى ذلك .

سابعاً – الوعي القومي :

وهنا نجد جدالاً مهماً بين أولئك الذين يعتبرون وعي الأمة بوجودها القومي المتميز الكامل من عوامل الفرز القومي ومن لا يعتبرونه كذلك . ونستطيع هنا أن نميز بين رأيين هما :

الرأي الأول :

يقول بأن الوعي القومي عامل أساسي من عوامل القومية لأن الأمة إنما توجد بشعور الأفراد بها.

ونجد مثلاً أن " هوراس ديفيز " يعتبر الوعي القومي عاملاً أساسياً في تكوين الأمة ، بل ويعتبر أن غياب الوعي المعبر عنه بالرغبة من جانب الناس في أن يعتبروا القومية المعينة منفصلة أو مستقلة يجعل من هؤلاء الناس مجرد جماعات عرقية أو أثنية وليست أمماً (كتاب حول القومية ص ١٧) وهو يبلور رأيه قائلاً " إن الأمة يكون لها دائماً :

١- أرض محددة

٢- حجم أدنى معين من السكان

٣- قدر من التكامل أو الاعتماد المتبادل .

٤- وعي بذاتها كأمة .

ويضيف أن العاملين الأول والرابع وهما الأرض والوعي القومي ، عاملان رئيسيان .

ويذكر د . علي مختار أن سمير أمين يعتبر الوعي القومي من مقومات الأمة ولكن بمفهوم معين يمكن أن نسميه عنصر الإرادة ، فيقول د . علي مختار في مقاله حول " مفهوم الأمة عند سمير أمين " (إن تواجد العناصر التي تشكل الأمة لا يؤدي للوحدة في غياب إرادة قائمة على مقتضيات العصر ، وتتحقق هذه الإرادة من خلال النضال الديمقراطي الذي يوفر شرط اقتناع الشعب بإيجابية المشروع الوحدوي .)

الرأي الثاني :

وهو رأي لا يعتبر الوعي القومي عاملاً من عوامل تكوين الأمة أو القومية وهذا باعتبار أن الوعي ليس مقوماً من مقومات الأمة ولكن هو ثمرة لتكون الأمة ، فالأمة توجد أولاً كحقيقة موضوعية ثم يترتب على وجودها الشعور بها كحقيقة ذاتية . وبعبارة أخرى فإن الوعي هو واقعة شعورية ذاتية مترتبة على الحقيقة الموضوعية " الأمة " والمستقلة فلسفياً عن إدراك الشخص لها . ونحن نميل إلى ذلك . ونجد تفسير هذا الكلام فلسفياً عند أرسطو وهيجل حيث فرقا بين وجود الشيء لذاته . فالحقيقة الموضوعية المادية توجد بصرف النظر عن معرفة الشخص بها وهو ما يسمى (الشيء في لذاته) وعندما تتحول هذه الحقيقة لحالة الديناميكية (أو الحركة) أي إذا حدث الوعي بها فهنا يوجد (الشيء ذاته) ، فمثلاً الشغيل أو العامل موجود في ذاته وينتمي للطبقة العاملة موضوعياً ولكن لا يمكن أن يصبح فاعلاً اجتماعياً – اقتصاديا – سياسياً ما لم يدرك ذلك فيصبح وجوداً لذاته . وهذا الكلام ينطبق على الأمة أيضاً .

ثامناً – التاريخ :

معلوم أن ساطع الحصري بوصفه أباً للفكر القومي الكلاسيكي يجعل التاريخ أحد المقومين الرئيسين للأمة إلى جانب اللغة . والتاريخ عنده هو محتوى " لغوي وثقافي نفسي " . وقد تأثر في ذلك بالمدرسة المثالية وخاصة الألمانية كما أشرنا سابقاً ، وفي ذلك يقول في كتابه " آراء وأحاديث في القومية " ص (٢٢) : بينما أن اللغة هي روح الأمة وحياتها ، فإن التاريخ هو شعور الأمة وذاكرتها ، فإن وحدة التاريخ تولد تقارباً في العواطف والنزعات ، وإن الذكريات التاريخية تقرب النفوس وتكون بينها نوعاً من القرابة المعنوية التي تصبح أشد تأثيراً من القرابة المادية بدرجات ، فالأمة التي تنسى تاريخها تكون قد فقدت شعورها ووعيها . وهذا الشعورو الوعي لا يعود إليها إلا عندما تتذكر ذلك التاريخ وتعود إليه .

ولذلك نجد أن مفهوم التاريخ عند الحصري مفهوم غامض ولكنه ذو محتوى نفسي جماعي يكاد يتطابق مع مفهوم الشعور القومي .

وجاء بعد ذلك الفكر السياسي العربي المتأثر بعلم الاجتماع المعاصر وخاصة المدرسة الألمانية المسماة بمدرسة فرانكفورت وأيضاً من خلال التأثر بعلم الاجتماع الماركسي وخاصة عند المفكرين البنائيين الماركسيين في أوروبا ، ومنح هذا الفكر السياسي العربي تحديداً أوضح وأدق لمفهوم التاريخ بحيث اعتبره هو التاريخ الاجتماعي والقصد من هذا المعنى هو تاريخ تكوين الجماعات على أسس مناقشة الأبنية والأدوار الخاصة بالأسرة والعائلة والعشيرة والقبيلة واتحاد القبائل والأعراق والأجناس والمجتمعات ما قبل القومية والمجتمعات متعددة القوميات .

ونستطيع أن نزعم أن حزب البعث قد حاول تأصيل هذا الاتجاه جزئياً ونسبياً حيث يكتسب مفهوم التاريخ لديه ديناميكية اجتماعية أوضح متمثلة في سعي الجماعة البشرية العربية إلى صناعة رسالتها الحضارية عبر الزمان ، غير أن البعث لم يوضح لنا ما هي هذه الرسالة الحضارية . وعموماً فإن الفكر السياسي العربي الذي تأثر بأبحاث السوسيولوجيا الماركسية خاصة قد جاء ليملأ هذا الفراغ بحيث اعتبر التاريخ هو التاريخ الاجتماعي بالذات . وعلى الجانب الآخر قدر للتاريخ أن يأخذ منحى سوسيولوجياً مختلفاً في إطار غير ماركسي هو الإطار الفكري القومي المجدد على يد " عصمت سيف الدولة " وذلك من خلال البعد الحضاري كما أشرنا مراراً .

تاسعاً – العامل الحضاري :

لا يوجد ذكر واسع للعامل الحضاري في الفكر السياسي العربي القومي ، ولكن بإمكاننا أن نستنتج ثلاث مواقف كما يلي :

١- الموقف الأول :

موقف البعث خاصة حزب البعث الاشتراكي ، وقد جاء ذكر الرسالة الحضارية للأمة العربية باعتبارها رسالة خالدة تأخذ أشكالاً مختلفة عبر التاريخ وإن كانت ثابتة بوصفها نوعاً من العطاء القومي .

٢- الموقف الثاني :

موقف الإسلاميين المحدثين (ونقصد هنا ذوي التفكير العروبي منهم ، هم يرون أن الأمة العربية لم تتكون إلا من خلال حضارة الإسلام وأبرز هؤلاء د . محمد عمارة حيث تحدث في بحثه " القومية العربية والإسلام " عن الحضارة العربية الإسلامية وعن دور الإسلام والمفكرين الإسلاميين في القرن التاسع عشر والقرن العشرين في بلورة الفكر القومي . أي أنه تحدث عن عامل الحضارة ولكن مصبوغاً بالصبغة الإسلامية .

٣- الموقف الثالث :

موقف القوميين المحدثين وهو ما نجده لدى " عصمت سيف الدولة " حيث يقدم نظرية في القومية يحتل فيها النمط الحضاري المركز الرئيسي متمثلاً عند الأمة العربية في نمط للحضارة العربية الإسلامية . أي يتحول التاريخ عنده إلى الحضارة المشتركة للأمة من من خلال التطور التاريخي للتفاعلات القائمة بين أبناء الأمة مع تأكيد الدور الخاص للإسلام بمعنى الحضارة الإسلامية في ذلك . وفي رأينا أن العامل الحضاري يشكل البوتقة التي تنصهر من خلالها مقومات الأمة لتشكل الطابع القومي لهذه الأمة ، وإن شئت فقل أن العامل الحضاري يجمع طائفة من العوامل القومية تحت مظلة واحدة يمثل ما يمكن أن تجمع طائفة أخرى تحت مسمى الثقافة والحضارة بهذا المعنى هما المحتوى الإجتماعي لحياة الناس (أو للشعب ، بتعبير أدق) على الأرض أو الوطن . وبذلك يمكن في ختام هذه الدراسة أن نقول إن الأمة تنتهي في التكوين الأخير إلى اجتماع ثلاث عناصر أساسية هي :

١- الشعب ٢ - الوطن ٣ – الثقافة ٤ – الحضارة

فأما الشعب فهو ما درج بعض الكتاب على تسميته بالسكان أو المجتمع أو الناس وتدخل في دراسته العوامل التاريخية مثل الأصول العرقية وغيرها .

وأما الثاني فهو الوطن أي الأرض التي تحولت بفعل الاستقرار وتوطن الشعب ومن خلال العنصر الثالث – تحولت إلى الوطن .

أما العنصر الثالث ، فإننا نجد فيه اللغة وقد انصهرت بالتفاعل النفسي والاجتماعي إلى ثقافة ونجد التاريخ وقد امتلأ بالحضارة .

وإذا كان لنا أن نتبنى المفهوم الواسع لكلمة حضارة والتي تعم العنصرين المعنوي والمادي فيمكن أن نتبنى مصطلح الثقافة للدلالة على العنصر المعنوي ، ونطلق مصطلح المدنية على البناء المادي (والذي يسميه البعض بالحضارة) ، بينما نستبقي مفهوم ومصطلح الحضارة لكي يشمل كلاً من الثقافة والمدنية .

الفصل الثالث

السياق المفاهيمي والتاريخي للأمم والقوميات

المبحث الأول

" تحديد المصطلحات "

وسوف نتناول التفريق بين المصطلحات التالية :

الأمة – القومية – الشعور القومي – الفكر القومي – النظرية القومية – الايديولوجيا القومية – الحركة القومية .

أولاً – الأمة :

الأمة : هي مجتمع يتميز بقدر معين من التجانس الإجتماعي الثقافي والحضاري عبر الزمن : أي في البعد التاريخي .

وبعبارة أخرى : فإن الأمة هي التعبير عن التحام عضوي بين جماعة بشرية معينة وبين مقومات حياتها المادية والمعنوية عبر الزمن .

ثانياً – القومية :

وهنا نجد مشاكل أكثر من سابقتها حيث ثمة غموض يكتنفها ... وللقومية في اللغة العربية معنيان وكذلك في اللغات الأوربية Nationallism .

أما في اللغة العربية فالمعنيان هما :

المعنى الأول :

١- أنها حقيقة اجتماعية : وهذا ما تم الاتفاق عليه عموماً ، ولكن يثور الاختلاف عندما نريد أن نعرف ما هي هذه الحقيقة الاجتماعية ، فهنا يحدث الغموض والخلط ، إذ غالباً ما يتحدث الكتاب والباحثون والجمهور العام عن الأمة والقومية بالتبادل كمرادفين ولكن في رأينا أن هناك سبباً هاماً يدعونا للتمييز بين الأمة والقومية .

فالأمة هي المجتمع البشري الذي له خصائص معينة : (التجانس الاجتماعي الكامل نسبياً).

أما القومية فهي : الكيان الثقافي والحضاري المعبر عن هذه الأمة ولذلك فهي تمثل الطابع المميز بصفة خاصة للمجتمع البشري المعين .

المعنى الثاني :

٢- إن القومية مذهب سياسي ، أو ايديولوجية سياسية ، أي أنها نسق فكري سياسي معين يقوم على اعتبار العرب أمة واحدة ، وبهذا المعنى وجدت على الساحة العربية عدة عقائد أو إيديولوجيات سياسية أهمها ثلاثة هي : القومية العربية والاشتراكية والإيديولوجية السياسية الإسلامية .

إضافة إلى ذلك نجد في اللغات الأوروبية كلمة Nationality وتنصرف إلى المعنيين التاليين:

المعنى الأول : " المجتمع القومي " واحياناً الجماعة القومية التي لم تتبلور بصفة كاملة كأمة .

المعنى الثاني : الجنسية بمعنى رابطة الانتماء لدولة معينة أو Citizenship هنا يلاحظ أن اللغة العربية تختلف عن اللغات الأوربية في اشتقاق المصطلحات .

فبينما أفردت اللغة العربية وخاصة بعد انتهاء الربع الأول من القرن العشرين كلمة (الجنسية) للدلالة على الانتماء للدولة ، وجعلتها تحل محل كلمة (الرعوية) فإن اللغات الأوروبية قد أوجدت كلمة خاصة للدلالة على الايديولوجية القومية وهي Nationalism ولم تشتق اللغة العربية كلمة خاصة للدلالة على هذا المعنى .

ثالثاً - الشعور القومي :

وواضح من الكلمة أن لها مدلولاً نفسياً معيناً ، ويقصد بالشعور القومي " الاحساس أو الادراك النفسي الاجتماعي على مستويات متعددة ابتداء من النخبة إلى مجموع الأمة .

وفحواه إذن " الاحساس بوجود تلك الأمة وكيانها الثقافي والحضاري المتميز " وبعد الشعور القومي يأتي " الوعي القومي " .

رابعاً – الوعي القومي :

وهو مصطلح ينقلنا من الحيز النفسي والعاطفي العام إلى الحيز العقلي المتمثل في إعمال لحظة الفكر .

ولذلك فإن الوعي يولد ما نسميه "الفكرة القومية" و " الحس القومي " .

أ- الفكرة القومية: مثل الفكرة العربية لدينا " أي تلك المقولة النظرية القائمة على الإيمان بالقومية العربية والوحدة العربية " ، وبهذا المعنى تحدث " أنيس صايغ " مثلاً عن الفكرة العربية في مصر .

ب- وبعد تولد الفكرة القومية يأتي ما نسميه " الحس القومي ".

خامساً - الحس القومي :

وهو مزيج من العاطفة والفكر اي من الشعور النفسي والإدراك العقلي، وهو تعبير عن بلوغ القومية حداً أدنى معينا من النضج في الوجدان والوعي العام .

ثم إن الحس القومي يتبلور على الصعيد النظري في ثلاث مستويات فرعية ضمن المستوى العام للحس وهي :

١- مستوى الفكر القومي

٢- مستوى النظريات القومية

٣- مستوى الإيديولوجيا القومية

ويقصد بالفكر القومي :

ذلك الإنتاج النظري متعدد الأشكال والمختلف في درجات العمق والمتنوع في الشواغل والميول والذي ينطلق كله من قاسم مشترك أعظم هو الفكرة القومية.

ولكن عندما يبلغ الفكر القومي لدى بعض المبدعين حداً معيناً من الإزدهار والتكامل والنضج فهنا نطلق على الفكر صفة النظرية (النظرية القومية) .

النظرية القومية :

النظرية القومية هي بناء أو بنيان فكري متماسك قائم على مجموعة من المقومات ويستخدم المنهج العلمي في التوصل إلى مجموعة معينة من النتائج.

وبهذا المعنى نستطيع أن نقول أن (ساطع الحصري) له نظرية في القومية، وكذلك نستطيع أن نقول أن "حزب البعث " وجدت لديه في فترة معينة نظرية قومية ، كما يمكن أن نقول أن د. نديم البيطار له نظرية : في الأيدلوجية الانقلابية و"القوانين الرئيسية لتجارب التاريخ الوحدوية) كذلك يمكن أن نقول أن "عصمت سيف الدولة" له نظرية .

ولكن في مقابل الفكر والنظرية توجد الأيديولوجية.

الأيديولوجية :

تختلف عن النظرية، في أن نسيجها الفكري متغلغل في الممارسة السياسية فهي بمثابة دليل العمل لحركة حزبية أو حركة سياسية معينة.

وفـي هـذا المجـال نسـتطيع أن نتحـدث علـى الأيديولوجيـة القوميـة لحـزب البعـث، وكـذلك الأيديولوجيـة الناصـرية التـي قامـت علـى أفكـار جمـال عبـد الناصـر وأعمالـه ، كـذلك نسـتطيع أن نتحدث عن الأيديولوجية القومية " لمعمر القذافي " ، فكـل مـن هـؤلاء لديـه خطـوط فكريـة محـددة اندمجت في الممارسة السياسية وأصبحت دليلا للعمل رغم أنهـا قـد لا تملـك الغنـى الفكـري الـذي يوجد في النظريات القومية. وبعد ذلك تأتي الحركة القومية .

سادساً - الحركة القومية :

وهي عبارة عن كيان عملي معين يقوم على حد أدنى من التنظيم ولكنـه فـي جميـع الأحـوال يشترط وجود الأيديولوجيه والقيادة وعناصر التواصل بين القيادة والجمهور المخاطب.

وبهذا المعنى نستطيع أن نتحدث عن "الحركة القومية الألمانية" التي ركب موجتها الزعيم الألماني " بسمارك " في القرن التاسع عشر، وعن الحركة القومية الإيطالية التي قادها "كـافور " و"مـاتزيني "، وكـذلك الحركـات القوميـة فـي البلقـان فـي اواخـر القـرن الماضـي وأوائـل القـرن الحالي.

كما نتحدث عن الحركة القومية العربية التي تمثلت في نشـاط عـدد مـن الأحـزاب والقيـادات والزعامات السياسية في الخمسينات والستينات، كمـا نميـز فـي داخلهـا بـين العديـد مـن الاتجاهـات والحركات الفرعية مثل "حركة القوميين العرب ، والبعث ، وجمال عبد الناصر.

وبهذا الشكل تظهر أمامنا المستويات التي أشرنا إليها سابقا وهي :

١- الأمة

٢- القومية

٣- الشعور القومي

٤- الوعي القومي وينقسم إلى:

آ- الفكرة القومية

ب- الحس القومي

٥- وفي الحس القومي

آ- الفكر القومي

ب- النظرية القومية

ج- الأيديولوجية القومية

٦- الحركة القومية.

وهذه المستويات الستة ترتبط فيما بينها، بل ويمكن القول أن هناك نوعاً من التلازم والتتابع فيما بينها، ولكنه تلازم وتتابع منطقي أكثر منه عملي .

فالحقيقة أن "الأمة" تكون لها قوميتها المتميزة، وأن وجود القومية المترتب على تكون الأمة يؤدي إلى توليد الشعور والوعي والفكر والحركة.

ولكن كل هذا لا يعني أنه تلازم وتتابع عملي حتمي، فقد توجد الأمة ومعها القومية، ولكن يتأخر ظهور الشعور القومي.

وقد يوجد الشعور ولكنه لا يترجم إلى وعي، وقد يوجد الوعي ويتأخر ظهور الفكر، ثم أن الفكر قد يوجد ويتبلور أيديولوجياً ، ولكن لا توجد الحركة المنظمة التي تحوله إلى واقع.

وربما كانت المشكلة الأساسية في القومية العربية مثلاً ، وخاصة في المرحلة الأخيرة، هي أن الإبداع قد توقف أو وصل عند حدود الفكر، وإن هذا الفكر لم يستطع في المواجهة الكبرى مع التيار الإسلامي أن يبلور المقومات الإيديولوجية والحركية المناسبة للتعامل مع طبيعة الموقف.

(ويلاحظ تاريخياً أن القومية العربية موجودة منذ القرن الثالث عشر تقريباً ولكن الشعور والفكر القومي لم يظهرا الا في القرن التاسع عشر).

المبحث الثاني

التفرقة بين الأمة والكيانات الاجتماعية:

ونستطيع ان نميز بين التكوينات الآتية:

١- أمة ذات قومية.

٢- مجتمع ما قبل الأمة والقومية :

آ- الجماعة القومية ب- التجمع القومي

٣- الجماعة الأثنية.

٤- الأقليات القومية.

أ- الأمة ذات القومية :

بالنسبة للأمة ذات القومية فأمرها سهل ومفهوم فى ضوء ما ذكرناه سابقاً بمعنى اجتماع عدد من الخصائص المشتركة المعينة (الثقافة، و المدنية) ويجمعها مفهوم الحضارة.

والأمة ذات القومية :

هي تلك الأمة التي لها نمط حضاري مشترك ومتميز، وهي التي تملك القدرة على النمو الحضاري المشترك والمتميز والذي اكتسب حدا معيناً من النضج والتكامل.

ولكن ليست كل المجتمعات أخذت شكل الأمم ذات القوميات ، إذ هناك مجتمعات نستطيع أن نطلق عليها مجتمعات ما قبل الأمة و القومية .

٢- مجتمعات ما قبل الأمة والقومية:

ومنها الجماعة القومية، والتجمع القومي .

أ- الجماعة القومية : " وهي تعني جماعة اجتمعت لها عناصر عديدة لتكوين الأمة ، ولكن ينقصها عنصراً أو بعض العناصر الأساسية " فهي إذن لم ترق إلى مصاف الأمة المكتملة. ومثال الجماعة القومية " الأكراد ". وبعد الجماعة القومية ودون مستواها يأتي :

ب- التجمع القومي : " حيت تكون العناصر المشتركة أقل عدداً ونوعاً من تلك التي تجمع الجماعة القومية مثل " الأرمن "

٣- الجماعة الأثنية :

آما الجماعة الأثنية (وهي نوع معين من مجتمعات ماقبل الأمة والقومية كما ذكرنا) فهى جماعة تعتبر في مستوى أدنى على سلم التطور القومي من الجماعة القومية والتجمع القومي، فهي تقريبا خارجة لتوها من الطور القبلي أوالعشائري أوهى لم تزل .

ومثال ذلك : التجمعات القبلية الكثيرة في إفريقيا جنوب الصحراء، وفي غرب آسيا .

وتقوم الجماعة الأثنية على العوامل الثلاثة الآتية أو أحدها وهي :

١- الدين ٢ – اللغة ٣ - العنصر.

فغالباً ما تجتمع فيها هذه العناصر الثلاثة أو أقل من ذلك ، حيث نجد جماعات أثنية يجمعها الأصل العرقي (العنصر) واللغة أو اللهجة مثلما هو الحال في " جنوب السودان " حيث يجمع الأهالي التجانس العرقي وكذلك اللغة أو اللهجة أكثر من الدين لأن هناك المسيحي والوثني .. الخ.

ولكن ينبغي أن نفرق بين الجماعات الأثنية ، والأقليات القومية . وعلى سبيل المثال فإن منطقة شرق أوروبا والبلقان قامت فيها ، في النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، والنصف الأول من القرن الحالي ، أشهر عملية للتلفيق القومي والتلاعب بالمشاعر ، لأن الدول في هذه المنطقة كانت قد صنعت حسب سياسة التوازنات الصراعية في المنطقة ووجدت من ثم أقليات قومية عديدة مثل الألمان في بولندا والرومان في مولدافيا ، والمجريين في رومانيا ، والاتراك في اليونان ، والألبان في يوغوسلافيا ، ولذلك ثارت مشاكل الأقليات في هذه الدول .

٤- الأقلية القومية:

ويقصد بها " جماعة معينة تنتمي إلى قومية معينة شاءت الظروف التاريخية والسياسية أن توضع في كنف أمة أخرى أو دولة أخرى مختلفة عن أمتها وقوميتها الأصلية ، وبالتالي فهي بمثابة أقلية مع القومية الأخرى ، ولكنها لا تفقد صفة التماسك القومي مع مجتمعاتها الأصلية ، وإن كانت قد تتعرض لعملية تدمير منظم ومتواصل لمقومات هويتها القومية ولعل أبشع الامثلة على ذلك حالة (١٢) مليون كردي في تركيا والاقلية العربية في تركيا حيث منعت عنهم ممارسة حقوقهم السياسية واسلعمال اللغة العربية الخاصة بهم داخل الدولة.

ولكن من الخطأ مبدئيا أن يطلق تعبير الأقلية القومية على جماعة قومية معينة في دول تسيطر عليها قومية رئيسية، ورغم أن هذا خطأ شائع، حيث تسيطر قومية "آلهان " على المجتمع والدولة الصينية وما عداها يعتبر عندهم أقليات قومية.. و لهذا الموقف أبعاد سياسية واضحة لأن الآقلية أدنى درجة ، غالباً ، في التمتع بالحقوق قانونياً و عملياً .

المبحث الثالث

تصنيف العالم المعاصر على أساس قومي في الفكر السياسي :

ويصنف العالم على أساس المعيار القومي إلى :

أولا: المجتمعات ثانيا: الدول

أولاً - المجتمعات :

وتصنف على أساس أن هناك ثلاثة انواع للمجتمعات هي:

١- المجتمع القومي (المتجانس) :

وهو ذلك المجتع الذي تكون كأمة، واصبحت به قومية.. والمؤمنون بفكرة القومية العربية يعتقدون أن المجتمع العربي هو مجتمع قومي ، أي أمة ذات قومية ، ولكن وجود المجتمع القومي لا ينفي وجود مجتمعات فرعية ذات تباينات أو خصوصيات معينة .

٢- المجتمع دون القومي (أوما قبل القومية) :

بمعنى المجتمعات الأقل من الأمة .

حيث أن هناك مجتمعات لم تصل إلى مستوى الأمة مثل الجماعة القومية التي لها خصائص مشتركة ولم تكتمل "كأمة".

وهناك أقل من ذلك التجمع القومي، ثم الجماعة الأثنية أو العرقية التي تقوم على الأصل أوالدين أو اللغة أو على ثلاثتهما معاً مثل الكثير من القبائل الإريقية التي لم تصل إلى حد تكوين الأمم كما ذكرنا..

٣- مجتمع متعدد القوميات:

وهذه المجتمعات مختلفة القوميات والأصول العرقية ، وهذا النوع من المجتمعات يعاني من أزمة عميقة نتيجة لفقدان التجانس وغلبة العوامل المفككة، وهو ما نلاحظه في الإتحاد السوفيتي السابق وعملية انهياره ، وكذلك انهيار يوغوسلافيا، وكذلك تشيكوسلوفاكيا.

وهذا الانهيار يمثل أمامنا أزمة المجتمع متعدد القوميات.

وبذلك يتضح لنا أن الوطن العربي ينتمي إلى فئة المجتمع القومي المتجانس .

ثانياً ـ التصنيف على أساس الدول:

وهنا نجد العديد من التصنيفات.

١ـ دول قومية :

بمعنى أن حدود الأمة وحدود الدولة متطابقة أي أن التطابق متحقق بين حدود الأمة كمقولة إجتماعية وحدود الدولة أي أن التطابق متحقق بين حدود الأمة كمقولة إجتماعية و حدود الدولة كمقولة سياسية .

وتمثل ذلك في أوروبا الغربية، حيث كانت أوربا هي معقل الظاهرة القومية مثل (ألمانيا، بريطانيا) بمعنى وجود كيان سياسي يضم أمة واحدة وهذا لا يعني عدم وجود أقليات صغيرة في معظم الأحيان .

ولكن يثور الجدل (بريطانيا) هل هي دولة قومية أو متعددة القوميات حيث تتكون (المملكة المتحدة) من ثلاث كيانات رئيسية هي إنجلترا، اسكتلندا، ايرلندا الشمالية، بالإضافة إلى ويلز. وكذلك نجد (أسبانيا) التي تعاني من مشكلة (الباسك). فالدولة القومية فى أوروبا إذن ليست مصبوبة في قالب جامد، ولذلك يمكن أن نقول أن هذه الدول هي دول قومية أكثر منها مجتمعات قومية.

٢ـ الدول والكيانات السياسية المعبرة عن التجزئة القومية "أي تجزئة الأمة مثل الحالة العربية":

إن معظم الكيانات السياسية في الوطن العربي القائمة هي كيانات هشة وهي في طور التكوين أو هي تحت التكوين ، أما بخصوص مستقبلها فهناك عدة مسارات متصورة :

الأول: متفاءل ويرى أنها سوف تنصهرفي قيام دولة عربية موحدة :

الثاني : متشائم ويرى أنها سوف تشكل كيانات منفصلة عن بعضها البعض وإن كل كيان سوف يرتبط مع مركز أو كيان من الخارج (التبعية) .

الثالث: مسار وسط بحيث يتشكل نوع من الإئتلاف السياسي العربي بين الدول العربية مع نوع من الإستقلالية لهذه الدول ، ولكن وجود (إسرائيل) في المنطقة يجعل تطبيق هذا الحل صعبا ولا يوجد بالتالي أمامنا إلا الحد المتفائل او المتشائم، وبالتالي يصبح من الضروري النضال من اجل بناء الدولة العربية القومية.

٣ـ الكيانات السياسية تحت التكوين :

وهي كيانات تحت التكوين أي تخضع للتفاعل الذي يشبه المخاض ، ويصعب أن نتنبأ بشكلها في المستقبل، والقاعدة التي تستند اليها ليست ثابتة.

ولكن هذا مفهوم إجرائي مؤقت يقصد بـه، محاولـة تفسير الواقع السياسي في معظم بلدان العالم الثالث السابق في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، حيث لا ينطبق عليها مفهوم الدولة القومية، كما ان مصيرها غير مؤكد تماماً ومن ثم هناك احتمالات مفتوحة، وهذا ما قصدناه من عبارة كيانات تحت التكوين .

٤- دولة متعددة القوميات:

وذلك مثل الإتحاد السوفيتي السابق وكذلك مثل يوغوسلافيا سابقاً .

٥- فكرة إقامة سلطة عالمية فوق قومية :

والأمم المتحدة لدى المتفائلين المثاليين يمكن أن تصبح هذه السلطة أو هي أداتها.

المبحث الرابع

السياق التاريخي المقارن لتكوين الأمم والقوميات

إن هناك عدة نماذج أساسية لظهور الأمم والقوميات، ثم هناك نماذج فرعية :

أولاً- النماذج الأساسية لظهور وتبلور الأمم والقوميات :

(١) النموذج البريطاني- الفرنسي .

(٢) النموذج الألماني- الإيطالي .

(٣) النموذج البلقاني .

(١) النموذج البريطاني الفرنسي :

أى أن (الدولة والطبقة أنشأت أمة) فمنذ بداية القرن الحادي عشر تقريباً ولمدة ثمانية قرون مضت، مرت العناصر الثلاث (الطبقة والدولة والأمة) بخطوات متدرجة ومتزامنة إلى حد ما شملت المقومات الآتية :

(أ) تبلور الجماعة البشرية والإقليمية :

بمعنى حدوث نوع من الثبات والديمومة في استقرار جماعات بشرية معينة على رقعة جغرافية محددة ولمدة زمنية طويلة بما سمح بإقامة كيان سياسي متميز لهذه الجماعة على هذا الإقليم.

(ب) ظهور مؤسسات سياسية وحكومية تمثلت أخيراً في المنظمة البيروقراطية ، والتي صارت أو أصبحت علامة أساسية على تطور الدولة القومية في أوروبا وذلك من خلال ما يسمى بالحكومة.

وكان ظهور وإقامة المؤسسات الحكومية (التنفيذية – التشريعية - القضائية) وفي مقدمتها ما يتصل بالمالية والعدل والقضاء وحفظ الأمن الداخلي وحماية الحدود كانت عاملاً أساسياً من عوامل بلورة حدود الهوية القومية، وخاصة من خلال فرض التعامل الرسمي بلغة أصبحت هي اللغة القومية، بالإضافة إلى تشجيع الانتاج الثقافي والأدبي بهذه اللغة .

(ج) الشرعية:

وهي عبارة عن تلك الرابطة الفكرية والنفسية التي تتبلور في الإيديولوجية، وتمثل أساسا لتقبل المحكومين لعلاقة الحكم، وكانت هي (الإيديولوجية الليبرالية) في النموذج البريطاني الفرنسي.

ويمكن القول أن تبلور الكيان السياسي للدولة بدفع من الطبقة الوسطى البرجوازية كان هو العامل الحاسم في تكوين الأمة.

(٢) النموذج الألماني الإيطالي:

"وهنا تختلف الحالة لأنه لم تقم دولة او كيان سياسي منذ البداية (إذ أن ألمانيا مثلاً توحدت عام ١٨٧١ م)

وهنا نجد أن (الأمة غير المكتملة تماماً) سبقت الدولة وأنشأتها، ثم ان الدولة أكملت بناء الأمة من خلال الوحدة . وهذا يعني أنه كانت هناك جماعة ذات خصائص قومية بحد أدنى من التجانس، قائمة فيما يسمى الآن بألمانيا، إيطاليا ، ولكن مع تعدد هائل في الكيانات السياسية.. وبهذا المعنى نقول أن الأمة لم تكن مكتملة ولكنها سبقت الدولة بل وأنشأت هذه الدولة.

ثم قامت الدولة بإكمال بناء الأمة من خلال الوحدة الألمانية و الوحدة الإيطالية ، وكانت القوة الدافعة لإقامة الدولة واستكمال بناء الأمة ، ليست هي قوة المطلب البرجوازي بالديمقراطية الليبرالية على النسق البريطاني الفرنسي، ولكنها قوة السعي إلى تصحيح الظلم والإهانة التي لحقت (بألمانيا) خاصة من جراء الحروب النابليونية .

(٣) النموذج البلقاني :

إن "الحركة القومية سبقت وحددت تكوين كل من الدولة والأمة " وهذا ما حدث في دول مثل بلغاريا، و رومانيا.

فلم تكن هناك أمم بالمعنى الحقيقي ولم تكن هناك دول بالمعنى الحديث ، ولكن كانت هذه المنطقة خاضعه للإمبراطورية العثمانية من ناحية ولتدخلات إمبرطوريتي (النمسا والمجر وروسيا)، ولقد نشأت حركة قومية نشطة في البلقان للاستقلال عن تركيا مع الإستفادة من المساعي الأوربية العثمانية ولاقتسام النفوذ بينها في منطقة البلقان .

ونشأت هذه الحركات القومية الموجهة ضد الاتراك ، أساسا وفي قلبها بنية طبقية ذات طموح برجوازي بفعل ارتفاع مستوى التطور الاقتصادي الرأسمالي في مناطق معينة، وحينما تبلورت الحركات القومية في البلقان كانت لديها مهمة حركية تتمثل في :

(آ) إقامة كيان سياسي ممثل في دولة أو شبه دولة.

(ب) إكمال التكوين القومي من خلال نشر اللغة المحلية مثل "البلغارية، و الرومانية أو السلافية الجنوبية"، و من خلالها نشأ التعليم بهذه اللغة وكذلك تحقق استقلال الكنائس الوطنية عن الكنيسة ا لأرثوزوكسية اليونانية.

(ج) ثم خلق ذاكرة تاريخية على الصعيد الجماهيري، وذلك لأن الزعماء القوميين كثيراً ما اعتمدوا على عنصر التلاعب بالتاريخ ، إما بإستعماله إيديولوجياً، وإما بإكتشافه وإعادة اكتشافه إذا كان منسياً ، واما بخلقه خلقاً جديدا إذا لم يكن للأمة تاريخ .

ثانياً- نماذج فرعية لتكوين وسيرة تطور الأمم والقوميات:

(أ) النموذج البولندي والمجري:

حيث أن الأمة تنفصل عن الدولة الإمبراطوية مثل إنفصال المجر عن النمسا وإنفصال الشطر التابع للعثمانيين من المجر، ومثل إنفصال بولندا عن كل من روسيا وبروسيا (ألمانية) والنمسا.

(ب) النموذج التركي : (تآكل الإمبرطورية):

وقريب من ذلك النموذج السوفيتي (إنهيار الإمبراطورية السوفيتية أخيراً).

(ج) نموذج الولايات المتحدة الأمريكية:

"أي دولة تنشئ مشروع أمة "

(د) النموذج اليو غسلافي- التشيكوسلوفاكي:

أي نموذج التلفيق متعدد القوميات.

وفي ضوء هذه النماذج السابقة والأساسية والفرعية منها يمكن الاستنتاج بمعالم النموذج العربي المقارن .

ونكتفي بالقول مؤقتاً باقتراح أنه نموذج أمة مجزأة تسعى إلى إقامة دولة قومية موحدة .

الفصل الرابع

المراحل التاريخية لتطور الفكرة القومية العربية

هناك معنيان للقومية كما ذكرنا في السابق:

- أنها حقيقة اجتماعية: أي الكيان السياسي الحضاري للأمة ، أي كيان حضاري لمجموعة معينة من الناس !.

- آو أنها مذهب سياسي أو ايديولوجية سياسية، أوفكرة أوعقيدة سياسية.

و نتناول القومية هنا كمذهب سياسي أي "كفكر" وكيف نشأت وترعرعت في الوطن العربي؟

ونستطيع القول أن هناك سبع مراحل أساسية لتطور "القومية العربية " :

المرحلة الأولى : هي مرحلة الفكرة العربية المختلطة بغيرها من الأفكار الإجتماعية والسياسية

وتمتد هذه المرحلة منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر، والفكرة العربية هنا هي تلك الفكرة التي تنطلق من الإيمان برابطة عربية خاصة وقد وجدت بجانبها "أفكار اجتماعية وسياسية مختلفة " تتنافس مع القومية العربية على المستوى العالمي والعربي مثل : "الوطنية والليبرالية" وقد اختلطت بالفكرة القومية العربية اختلاطاً شديداً .

(أ) ونجد أصداء لهذا الاختلاط في الدعوة " الوهابية " بزعامة محمد بن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية (الدعوة السلفية) حيث كان له فكر عربي عام ، وربما كان يهدف إلى تنقية الأفكار " الدينية " من الأفكار التي علقت بها والعودة للأصل النبوي بالذات .

(ب) ثم هناك النهضة الفكرية التي سبقت وصاحبت وأعقبت الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨، وكانت تلك الحملة بمثابة صدمة أو صفعة حضارية لمصر والوطن العربي ويعتبر بعض المؤرخين أن بداية النهضة العربية كانت مع مجيء الحملة الفرنسية حيث أخذ الإنسان العربي " يكتشف " الإنسان الأوروبي كمخترع وكاتب ومحارب وطابع .

ولكن الحقيقة أن بذور النهضة العربية، فكريا واجتماعيا، كانت قائمة من قبل الحملة الفرنسية، واستمرت بعدها برغم الأثر التدميري للحملة الفرنسية على الكيان المصري-الفلسطيني والعربي عموماً .

وقد ولدت الحملة الفرنسية عددا من ردود الفعل، وقامت مجموعة من الحركات المضادة للاحتلال الفرنسي في كل من مصر وفلسطين.. وبدأ يتولد الوعي بذاتية معينة للكيان العربي الخاص .

(ج) ثم جاء بعدها " محمد علي " الذي آقام نموذجا حديثاً للدولة والاقتصاد في مصر، وإن كان قائماً على احتكار الدولة وعسكرة المجتمع، وقام بإرسال البعثات التعليمية إلى الخارج لأوربا وخاصة "فرنسا" ودراسة العلوم العسكرية الحديثة ، و قد بعث معهم شيخا ليؤمهم في الصلاة ويرشدهم لأمور دينهم هو " رفاعة رافع الطهطاوى" الذي أصبح من أنبغ المثقفين في عصره حيث ألف كتاب " تخليص الابريز في تلخيص باريز" (وفي وقت مقارب لذلك صدر للكتاب التونسي " خير الدين التونسي " كتاب " أقوم المسالة في تدبير الممالك ".

وكان لهذه الكتابات، وحملة "علي باشا مبارك " لتحديث التعليم في مصر، وبعض الجمعيات الأدبية والثقافية في بيروت و دمشق ، دور حاسم في نشر الأفكار الحديثة ، مثل الفكر الوطني، والفكر الديمقراطي، وتخللتها في أحيان عديدة الفكرة العربية العامة .

فالفكرة الوطنية: تعني أن يحس الشعب بوجوده و بذاته الخاصة، ويحاول أن يعرضها على العالم أو يعكسها في علاقته بالخارج .

اما "الديمقراطية": فتعني أن الشعب يحاول أن يحكم نفسه بنفسه .

ولابد من الإشارة في معرض سيرة محمد علي إلى أن حملته الى الشام بقيادة ابنه (إبراهيم باشا) كانت تمثل نقطة فاصلة في تركيز الضوء على الفكرة العربية وتوسيع دائرتها في المنطقة، حتى و إن لم يكن محمد علي وابنه صادقين حقا في اعتناق وتطبيق هذه الفكرة، وإنما ركبا موجتها فقط وذلك من اجل توظيفها أو استعمالها سياسيا في المعركة الخاصة بإقامة دولة إقليمية كبرى منفصلة أو مستقلة عن الدولة العثمانية.

(د) وهناك بعد ذلك حركة الجامعة الإسلامية، على أيدي "جمال الدين الأفغاني " و"محمد عبده ". ورغم أن الجامعة الإسلاميه لم تكن مضادة من حيث المبدأ للدولة العثمانية ولسلطانها "عبد الحميد الثاني " إلا أنها من حيث المنطق الطبيعي لتطور الأمور، كانت تشكل محاولة فكرية لأحداث تغيير كبير في بنية الدولة العثمانية، وفي سياستها الخارجية من ناحيتين :

الناحية الأولى : الوقوف ضد أطماع الإستعمار الأوروبي.

الناحية الثانية: اعطاء مركز خاص للعرب داخل العالم الإسلامي العثماني، وتشير الأعمال الكاملة "للافغاني " إلى حين أنه قابل السلطان "عبد الحميد" حاول إقناعه بان يجعل عاصمة الخلافة في "مكة " بدلا من إسطنبول وحاول جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية .

ونشير أيضاً إلى (عبد الرحمن الكواكبي) الذي قام بنشاط فكري هائل في سبيل العروبة والإسلام.

(هـ) ثم نشير أخيراً إلى البعث الأدبي والشعري واللغوي الذي نهض في الشام ، وخاصة من خلال تكوين "جمعية الآداب والعلوم في بيروت " عام ١٨٤٧ م، والجمعية السورية ١٨٦٨ م .

ـ **والخلاصة** : أنه خلال المرحلة المشار إليها، وجدت الفكرة العربية بشكل "جنيني "، أولى غير مكتمل الملامح، وكانت مختلطة بغيرها من الأفكار وخاصة فكرة الوطنية وفكرة الدولة الحديثة، وفكرة الجامعة الإسلامية، وفكرة الحرية السياسية، ومختلطة بالنهضة الأدبية العربية.

وإذن فلا نستطيع أن نقول أن هناك فكرة قومية عربية صافية في تلك المرحلة ولكنها كانت مختلطة.

المرحلة الثانية : من ١٨٧٥ـ ١٩٠٨ م " الفكرة العربية السياسية العامة":

وقد أخذت الفكرة العربية تتضح بوصفها ممثلة للاهتمام والتركيز على جماعة بشرية معينة ذات حدود لغوية وثقافية وآثنية وجغرافية معينة، هي الجماعة العربية، كما أنها تحددت بمحتوى أو مضمون سياسي معين، هو الدعوة إلى اعطاء الولايات العربية في الدولة العثمانية حصة أكبر في السياسة والثقافة العثمانية، وتشمل هذه الولايات بعد احتلال مصر من قبل بريطانيا واحتلال تونس والجزائر من قبل فرنسا ، تشمل المناطق التي يطلق عليها الان سوريا، لبنان، و الأردن، وفلسطين، و العراق، با لإضافة الى الحجاز واليمن ثم ليبيا حتى ١٩١١ م .

وتبدأ هذه المرحلة سنة ١٨٧٥ م ، وخاصة بظهور ما يسميه الكتاب "بالجمعية الثورية السورية " ومن قبلها " جمعية حقوق الملة العربية عام ١٨٧١ في بيروت " ، وقد تمثل المحتوى السياسي للفكرة العربية حينئذ في اعطاء وزن خاص للعرب في داخل الدولة العثمانية ، من حيث اللغة ومن حيث السياسة أيضا، حيث أن تركيا قامت منذ اواخر القرن التاسع عشر بحملة،(التتريك)، من الناحية اللغوية و الثقافية و الإدارية والسياسية د اخل الد ائرة التركية التي شملت حينئذ المشرق العربي وشبه الجزيرة العربية وليبيا بينما نجد أن مصر كانت قد انسلخت وكذلك المغرب العربي عن الدولة العثمانية (علما بان المغرب الأقصى لم يكن خاضعا لأى سلطان خارجي).

وتشاء الأقدار التاريخية أن تتم عملية التتريك بمدلولها التسلطي بين جماعتين تدينان بدين واحد " هو الإسلام " " وهي الجماعة التركية والجماعة العربية المشرقية " ، وكان هذا التتريك شاملا اللغة والثقافة والسياسة كما قلنا:

فأما اللغة : فلأن الجهاز الإداري العثماني كان يتعامل رسميا باللغة التركية وكذلك الشأن بالنسبة للتعليم .

وأما الثقافة: فقد أخذت تركيا تشجع عملية كتابة تاريخ اجتماعي وثقافي تركي ينفصل عن الحضارة والثقافة العربية .

وأما السياسة فإن أمرها واضح من أن معظم الوظائف الحكومية في الولايات العربية كانت في يد أتراك ولم تكن في يد العرب.

ولمواجهة هذا التتريك الكامل انبثقت فكرة تأكيد الذاتية في منطقة الشام بالذات إلى المذهب القومي العربي ، وهذا ما يفسر لنا نشأة الفكرة القومية العربية في الشام قبل المغرب العربي ومصر .

ونلاحظ هنا أن الأساس الاجتماعي للدعوة العربية السياسية قد تمثل في ظهور كتلة اجتماعية من علماء الدين وملاك الأرض والعسكريين العرب في الجيش العثماني بالإضافة إلى بعض التجار ، وكان لهم جميعاً طموح واسع للمشاركة بدرجة أكبر ضمن هيكلية السلطة العثمانية في وجه تزايد مركزية الدولة بفعل المشروع التحديثي الذي انتجته تركيا في عهد الاصلاحات والتنظيمات منذ أواسط القرن التاسع عشر وبالتالي تقليل هامش الاستقلال الذي تتمتع به المناطق الخاضعة للعثمانيين .

المرحلة الثالثة : من ١٩٠٨ إلى ١٩٢٠ م " الفكرة السياسية العربية المحددة " :

وهي تنقسم لفترتين فرعيتين :

الفترة الأولى : من ١٩٠٨ الى ١٩١٣- واهم ما فيها "الدعوة إلى اللامركزية الإدارية والاستقلال الذاتي " .

الفترة الثانية : من ١٩١٣ – ١٩١٧ م – وأهم ما يميزها هو " الدعوة إلى الاستقلال الكامل للمنطقة العربية عن تركيا " .

الفترة الأولى من ١٩٠٨ م إلى ١٩١٣ م :

وتمثلت فيها الدعوة إلى اللامركزية الإدارية والاستقلال الذاتي . ولقد أخذ المحتوى السياسي للقضية العربية يتحدد بوصفه دعوة إلى الإصلاح السياسي المتمثل في إنشاء إطار لا مركزي للدولة العثمانية ، حيث اتجه الأتراك كما قلنا للنموذج الغربي " المركزية " وكانت مركزية الدولة في غير مصلحة العرب أو الولايات العربية .

(١) ولذلك دعت مجموعة من طلائع المثقفين العرب إلى اللامركزية الإدارية والاستقلال الذاتي ، ولم يكن المثقفون العرب آنذاك يدعون إلى الانفصال عن الدولة العثمانية بل إلى التعايش المشترك داخل الدولة العثمانية ، وبإقامة كيان لا مركزي يسمح بإقامة حكومات عربية في الدولة التركية العثمانية .

- ولقد نشأ في ذلك الوقت " حزب اللامركزية الإدارية العثماني " في القاهرة في أواخر ١٩١٢ بين المثقفين الشوام نظراً لاشتداد الاضطهاد التركي في بلاد الشام منذ اواسط القرن

التاسع عشر وحيث حدثت هجرة واسعة للمفكرين والأدباء إلى مصر وكان الوضع العام أفضل بالنسبة إليهم .

ولذلك لعب المثقفون الوافدون من الشام دوراً كبيراً جداً في النهضة الثقافية في مصر من أمثال جورجي زيدان ومحمد رشيد طه ، ويعقوب صنوع (ابو نضارة) وفرح انطون وغيرهم كثير .

(٢) ثم جاء المؤتمر العربي الأول في باريس ١٩١٣، والذي كان بمثابة البداية لظهور الفكرة القومية الأساسية، حيث دعا إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية ، وذلك بالتنسيق مع "حزب اللامركزية الإدارية العثماني ".

الفترة الثانية : من ١٩١٣- ١٩٢٠ م :

وظهرت في هذه الفترة فكرة الاستقلال الكامل للمنطقة العربية المتمثلة في ذلك الوقت في الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية.

آ- و تتميز هذه الفترة بتصاعد أزمة الدولة العثمانية، وخاصة بعد الاستقلال الكامل لبلغاريا واستيلاء دولة النمسا - المجر على البوسنة و الهرسك، و اجتياح ايطاليا لطرابلس الغرب، وإضطرابات اليمن، واشتداد حرب البلقان في مقدونيا.

ب- ومن جهة آخرى فقد وصلت (جماعة الاتحاد والترقي) إلى السلطة في تركيا وحسمت أمرها من الناحية الايديولوجية بالانحياز إلى فكرة القومية التركية أو الطورانية.

وفي هذا الإطار تشكل عدد من الجمعيات العربية السرية التي اتخذت العمل السري المسلح أسلوبا للعمل ضد الدولة العثمانية ، وكان اهمها " الجمعية القحطانية والتي كانت قد نشأت عام ١٩٠٩) و" جمعية العربية الفتاة ١٩١٦ " .

وفى الحجاز قامت الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ بقيادة " الشريف حسين " والتي يبدو أنه سبقها نوع من التنسيق بين "فيصل بن الحسين " وقادة "الجمعيات العربية" في الشام، وقد تمثل الاساس الإجتماعي للحركة السياسية المكافحة حينئذ في فئة الطلاب والمثقفين من أبناء الطبقة الوسطى أو ما يشبه ذلك، وهي الفئة التي تحملت عبء الدعوة إلى الإستقلال الكامل بالمقارنة مع دعوة الإستقلال الذاتي في المرحله السابقة.

المرحلة الرابعة: " وهي مرحلة ما بين الحربين العالميتين ١٩١٩- ١٩٣٩ م ":

و نلاحظ هنا أن أهم معالم المرحلة هو وصول كل من الجيش البريطاني بقيادة "اللنبي " وجيش "فيصل بن الشريف حسين " إلى دمشق عام ١٩١٨ وبداية ما يسمى بالفترة الفيصلية في سوريا والتي وصلت إلى قمتها بتتويج فيصل ملكاً على سوريا عام ١٩٢٠ م. ولقد اعقب تتويجه تحرك القوات الفرنسية باتجاه دمشق تطبيقا لإتفاقية (سايكس- بيكو) مع بريطانيا ، وأجبر فيصل على فك الجيش والرحيل عن دمشق وخضعت سوريا لفرنسا وخاصة بعد عقد مؤتمر " سان ريمو" والتي وضعت بمقتضاه سوريا ولبنان تحت الإنتداب الفرنسي . وبعد ذلك بخمس سنوات وقعت الثورة الكبرى في جبل "الدروز" في أنحاء سوريا من ١٩٢٥ إلى ١٩٢٧ م ، ولكن أخمدتها القوات الفرنسية. وحينئذ دخلت القوى الوطنية والقومية، مرحلة العمل السياسي والسلمي والبرلماني، من خلال التجمع السياسي المسمى (، الكتلة الوطنية)، طوال الفترة من ١٩٢٧ – ١٩٤٧ م .

وهكذا أخمدت الحركة العربية القومية الإستقلالية في منطقة الشام، وكان اقصى ما وصلت إليه هو الدعوة العامة إلى التضامن بين الدول العربية.

وفي مقابل سوريا أصبحت العراق بعد تتويج " فيصل " ملكاً عليها بواسطة الإنجليز عام ١٩٢١ م مركزاً لنشاط سياسي وقومي مكثف، حيث أصبحت قبلة المثقفين والسياسيين القوميين، ولكن في إطار تربوي دعائي لا يصل إلى حد العمل الثوري اللهم إلا إذا اعتبرنا ثورة "رشيد عالي الكيلاني " ١٩٤١ م التي أسهم فيها " ساطع الحصري " بشكل ما نوعاً من النشاط العربي الثوري.

- **والخلاصة**: إن مرحلة ما بين الحربين كانت مرحلة الهدوء والتراخي في الفكرة القومية العربية التي كانت وصلت أوجها في خضم الحرب العالمية الأولى .

المرحلة الخامسة : من ١٩٤٥- ١٩٥٦ م :

وتمتد من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى منتصف الخمسينيات ويمكن تسميتها بمرحلة "ظهور المشروع الايديولوجي العربي القومي "، حيث حدثت عدة متغيرات أساسية تمثلت في حصول سوريا ولبنان على استقلال عن فرنسا بالإضافة إلى حصول العراق على استقلاله الأسمي، ثم تصاعدت الهجرة اليهودية الى فلسطين والمواجهة العربية الفلسطينية لمشروع الدولة اليهودية ، بالاضافة إلى ظهور الدعوة " الأشتراكية العالمية " بقوة مع امتداد النفوذ السوفيتي إلى أوروبا الشرقية، وقيام تكتل سياسي وعسكري جديد. ولقد أدى ذلك كله إلى اختمار سياسي فكري كبير أخذ عدة صور تمثلت في الدعوات المتنافسة التالية :

أ- دعوة سوريا الكبرى (سوريا، الأردن، لبنان) أو القومية السورية ، وهذه الدعوة تولاها الحزب القومي السوري بزعامه : أنطون سعادة ".

ب- دعوة الهلال الخصيب وخاصة على يد نوري السعيد حيث يشمل العراق وسوريا الكبرى.

ج - دعوة الشرق الأوسط أو "سياسات الشرق الأوسط "، وهو مصطلح سياسي استراتيجي إبتدعه الغرب لخدمة، مصالحه وكان آوضح مثال لذلك " حلف بغداد" كجزء من سياسة الأحلاف التي قامت بعد الحرب العالمية الثانية للتصدي للاتحاد السوفبيتي وتطويقه، و الذي كان يجمع العراق، تركيا، الباكستان، بريطانيا، أمريكا.

د- الدعوة القومية العربية : "العروبة السياسية"، حيث كانت جزءا فعالا من التفكير للحركة السياسية العربية ونود التأكيد هنا على تطور هذه الدعوة إلى مرحلة جديدة تماماً هي مرحلة ظهور "المشروع الأيديولوجي القومي العربي "، ولأول مرة، حيث أن الأيديولوجية هي توظيف الفكر في الممارسة السياسية من خلال منظومة سياسية.

- ويتضمن المشروع الأيديولوجي من حيث المبدأ ما يلي :

(١) التكامل والتناسق الفكري "منظومة فكرية"

(٢) في سياق الحركة والممارسة السياسية.

وبذلك يختلف المشروع الأيديولوجي عن الفكرة، ولقد أخذ المشروع الأيديولوجي القومي العربي "صورتين أساسيتين :

الصورة الأولى : (الصورة الفكرية)، وقد تمثلت في كتابات عدد من المثقفين والمفكرين العرب وعلى رأسهم " ساطع الحصري " و "قسطنطين زريق " و"نقولا زيادة "وتركزت إسهاماتهم في نقطتين أساسيتين :

(أ) محاولة تقديم صياغة نظرية عامة في القومية فحواها أن مبدأ القوميات مبدأ فعال يسري على جميع الأمم الحية في العصر الحديث.

(ب) نظرة خاصة في القومية العربية فحواها " اللغة و التاريخ ".

الصورة الثانية : هي الصورة الحركية وتمثلت فى ظهور حركتين سياسيتين أساسيتين هما:

حزب البعث العربي الإشتراكي في عام ١٩٤٥ م، وحركة القوميين العرب التي ظهرت بعد نكبة فلسطين ١٩٤٨ م.

وتركزت مساهمة الحركة القومية في نقطتين هما :

(١) التركيز على الوحدة العربية .

(٢) ثم اتخاذ الوحدة مدخلاً خاصاً إلى نوع معين من التغيير يتمثل في حالة "البعث " في شعار " وحدة- حرية- اشتراكية " ثم في شعار حركة القوميين العرب " وحدة- تحرر- ثأر ". وكان العماد الإجتماعي لهذه الحركة في الصفوة المثقفة آو ما يسمى "الإنتلجنسيا" ويلاحظ أن مجموعة المفكرين والمثقفين كانت تنشط على هامش الحركة السياسية وليس في قلبها.

وهناك ملاحظة ختامية على المراحل السابقة تتعلق بدور المسيحيين العرب الملموس في الشام فى الدعوة القومية والفكر القومي بدءا من ابراهيم اليازجي ودوره في النهضة الشعرية القومية أواخر القرن التاسع عشر ودور شباب آخرين ذوي فكر عربي في العقدين الأولين من القرن العشرين مثل نجيب عازوري ثم دور مفكرين كبار بعد الحرب العالمية الثانية مثل قسطنطين زريق ونقولا زيادة.. ولكن هذا الدور لم يكن أهم الأدوار على الإطلاق.

المرحلة السادسة : مرحلة تبلور الأيديولوجية القومية ١٩٥٦-١٩٦٧ م :

فلقد تحولت القومية العربية من مشروع أيديولوجي إلى ايديولوجية، وخاصه على يد "جمال عبد الناصر" الذى آخذ شيئاً فشيئاً يفرض وجوده كزعيم للأمة العربية إعتبارا من عام ١٩٥٦. ونسوق هنا الملاحظات التالية :

أولاً : بينما كانت القومية العربية على يد حزب البعث والقوميين العرب مشروعاً أيديولوجياً عاماً فإنها تحولت على يد " عبد الناصر" إلى أيديولوجيا عربية شاملة .

ثانياً : عن القاعدة الاجتماعية للأيديولوجية العربية القومية انتقلت من حيز البرجوازية الصغيرة المثقفة إلى القاعدة الإجتماعية الأوسع التي حركتها أعمال وخطب جمال عبد الناصر ، للمشاركة في حركة التحرر القومي من الاستعمار البريطاني والفرنسي والصهيوني في المشرق والمغرب ، والخليج وشبه الجزيرة العربية وهي قاعدة العمال والفلاحين وأبنائهم .

ثالثاً : كانت مواقف الناصرية السياسية ، والحركية قادرة علىتعبئة الجماهير العريضة في الإتجاه القومي بشكل واضح .

رابعاً : كانت قيادة ثورة ٢٣ يوليو للأيديولوجية القومية قيادة معترفاً بها ذات طابع " كارزماتي " وهي " قيادة " جمال عبد الناصر " وذلك في مستوياتها الثلاث التالية :

(أ) إنتاج الخطاب الآيديولوجي وذلك بفعل قدراته كخطيب يحدث التلاقي السحري المباشر بينه وبين جمهوره فيكون في النهاية ممتلكاً لأقصى قدرة إقناعية ممكنة لدى الجماهير العربية، وهذه هي بلاغة الخطاب .

(ب) توصيل الخطاب: فقد اعتمد عبد الناصر على الخطب الشفوية المذاعة والتي يمكن استقبالها بجهاز المذياع الصغير من قبل كافة الأفراد العرب من البدو والفلاحين والطلبة والموظفين والجنود، من البحرين إلى جنوب اليمن إلى الأوراس الجزائرية ونواق الشط (نواكشوط).

(ج) التفاعل مع استجابات الخطاب الأيديولوجي لدى الجمهور و يتمثل ذلك في عمليات التعديل والتكييف للتفكير السياسي والعقائدي بما يتلاءم مع انماط استجابة الجمهور العربي على أوسع رقعة ممكنة . ولذلك انتقل عبد الناصر مثلاً بعد الانفصال إلى مساندة ثورة اليمن ثم انتقل بعد محاولات اسرائيل لتحويل نهر الاردن إلى مصالحة عربية من خلال مؤتمر القمة العربي الأول ١٩٦٤ م ثم انهى تقريبا سياسة المصالحة ١٩٦٦ . حتى جاءت النكسة . ولكن بالرغم من كل ماسبق كانت هناك ثغرات أساسية في الناصرية السياسية تمثلت بصفة خاصة فيما يلي :

١- يبدو ان طبيعة شخصية قيادة عبد الناصر من جهة اولى والظروف الموضوعية للمجتمع العربي من جهة ثانية لم توفر المقومات اللازمة لتحويل العلاقة بين ثنائية القيادة والقاعدة القومية ، وبين الجماهير العربية إلى علاقة سياسية مؤطرة ومنظمة ديمقراطياً وقومياً ، فوقعت الممارسة الناصرية في أحبولة الدولة الاقليمية المصرية .

٢- لم تتحول الشعارات والرمزيات السياسية إلى نظرية ثورية كاملة أو إلى أيديولوجيا كاملة. وكان هذا النقص على مستوى التتظيم والنظرية أكبر ثغرة في هيكل الناصرية السياسية وهو ما ادى في جزء منه إلى أحداث ١٩٦٧ م وما بعدها .

المرحلة السابعة :

مرحلة أزمة الأيديولوجية القومية بعد هزيمة ١٩٦٧، ولقد تمثلت الأزمة في أربع عوامل هي:

أ - الهزيمة العسكرية سنة ١٩٦٧ م في حرب العرب مع إسرائيل .

ب- خروج الدولة القاعدة (مصر) من مضمار الدور المركزي للايديولوجية القومية .

ج - تحول الحركات السياسية ذات البعد القومي سابقاً إلى قوى تمثل عبئاً على الحركة القومية إلى حد كبير مثل " البعث والقوميين العرب " حيث قامت صراعات دامية داخل أجنحة البعث في العراق وسوريا، أما " القوميون العرب " فقد تحولوا بعد ذلك من القومية العربية إلى الماركسية

د- تحول الأيديولوجية والحركة القومية من الهجوم إلى الدفاع وذلك مقابل الصعود المدوي الأيديولوجيا والحركة الإسلامية.

ولكن المهم أن الموقع الشاغر الذي تركته الناصرية حاولت أن تملأه من جهة أولى ثورة الفاتح من سبتمبر بقيادة جديدة، ثم الأحزاب الناصرية في البلاد العربية بما فيها مصر نفسها- من جهة أخرى .

الفصل الخامس

القومية العربية بين الأزمة و التجديد الأيديولوجي :

١- لماذا التجديد ؟

٢- عوامل الضعف في الآيديولوجية القومية العربية.

٣- مجالات التجديد وأفكار مقترحة.

١- لماذا التجديد؟

وترجع أهمية التجديد إلى سببين أولهما : هو طبيعة الايديولوجية ذاتها فالأيديولوجية تتكون من منظومة من الاعتقادات الاجتماعية والسياسية الموجهة نحو الفعل أو الفكر الاجتماعي ولذلك فهي تمثل نوعا من الانتماء المذهبي لدى المخاطبين بالأيديولوجية مما يؤدي إلى قدر من " الجمود الفكري النسبي " ، كشرط من شروط وجود الأيديولوجية .

فإذا لم يكن هناك " جمود نسبي " فقدت الأيديولوجية قيمتها ، وصبغتها وهذا يعتبر خاصية أساسية من خواص كل أيديولوجية .

ولذلك ينبغي أن تمارس الأيديولوجية نوعاً من التجديد والنقد الذاتي لكي تنقذ نفسها من الجمود المطلق وتتحول بالتالي إلى " دوجما" " dogma " وهي آفة الايديولوجيات ، حيث أن هذا ما حدث فعلاً للأيديولوجية الماركسية في الاتحاد السوفييتي ، إذ أن " ستالين " مثلاً كان يرى أن المجتمعات تمر بستة مراحل أساسية آخرها الشيوعية ، والخارج عليها يعتبر مرتداً ولم يعط فرصة للآراء المخالفة لذلك ، وبذلك أصبحت " دوجما " ومنعها من التجديد .

أما السبب الثاني : فهو أن القومية العربية تعيش ازمة حقيقية واصبح ينظر إليها أحياناً وكأنها تعبير عن اعتقاد مهزوز قديم ، وبالتالي لا يجدي في مواجهة هذه الأزمة أن ننكرها .

لماذا هذه الأزمة ؟

هناك عامل موضوعي ، وعامل ذاتي :

العامل الموضوعي : يتمثل في التطورات السلبية التي لحقت بالقوى القومية وفي مقدمتها " نظام جمال عبد الناصر " ، وأبرز مثال على ذلك " نكسة ١٩٦٧ م " الأمر الذي فسر على أنه بمثابة علامة على إخفاق القومية العربية .

<u>ويتمثل العامل الذاتي</u> في ان القومية العربية لم تمارس من داخلها حركة التجديد الذاتي الخلاق ، وخاصة بعد عام ١٩٦٧ م ، مما جعل الساحة خالية بصفة شبه كلية من مطلع السبعينيات أمام اتجاهين هما :

الاتجاه الأول : تمثله الايديولوجيات السياسية الاسلامية ، والتي اكتسحت الساحة العقائدية العربية بشكل متواصل حتى كادت أن تملأ الساحة السياسية العربية أو المسرح السياسي العربي.

الاتجاه الثاني : هو تلك الأفكار والعناصر الايديولوجية القائمة على أسس عرقية أو قبلية أو طائفية أو إقليمية ، من قوى اجتماعية داخلية وكذلك بتشجيع من بعض الجهات الخارجية أحياناً من أجل تأسيس مشاريع سياسية غير القومية العربية .

وفي اجواء هذه الأزمة ظهرت اتجاهات فكرية مختلفة في القومية العربية وحولها أضفت مزيداً من الضباب حول فكرة القومية عموماً وفكرة القومية العربية خصوصاً .

٢- عوامل الضعف في أيديولوجية القومية العربية :

نستطيع أن نقول أن الايديولوجية القومية تعاني من أوجه ضعف متعددة نجملها في ثلاث نقاط هي :

أ – نظرية الأمة والقومية .

ب- ضعف استراتيجية الحركة القومية .

ج- ضعف نظرية الثورة العربية

أ- ضعف نظرية الأمة والقومية :

الملاحظ أن المفهوم النظري للأمة والقومية في الفكر الأيديولوجي القومي قد تأرجح بين مفهوم الجماعةالأثنية (الجماعة البشرية) وبين الديانة "الإسلامية " .

وذلك ان معظم المساهمين في تكوين الأيديولوجيا القومية قد تناولوا بقدر معين من التركيز، تكوين الأمة العربية إنطلاقاً من جماعة بشرية معينة زحفت من شبه الجزيرة العربية ونقلت قسماً هاماً من طابعها القومي عبر لغتها وثقافاتها وحضارتها لتكون نسيجاً للأمة العربية .

ولقد كان هناك أيضاً ترديد دائم بأن الامة العربية كانت موجودة دائماً ، وذلك منذ ما قبل الإسلام وأن روح الأمة كامنة ومعطي لا يتطلب الأمر سوى بعثه من جديد للتغلب على تأثير عامل الزمن.

أما عن تأثير الديانة في الفكر القومي العربي فتبرز بعض الإجتهادات التي ربطت بين العروبة والإسلام، ولكنها لم تصل إلى حد تشكيل اطار نظري متماسك.

ولذلك كله يتعين ويجب إعادة النظر في مفهوم الأمة والقومية على ضوء السياق التاريخي المقارن وهو ما يؤدي إلى اعادة النظر في نقطتين هامتين :

الأولى: العلاقة بين الإنتماء القومي الكلي والإنتماءات الإجتماعية الصغرى... ونقصد بذلك بحث الأدوار السياسية لكل من العائلة و العشيرة والقبيلة ، و الطائفة ، والتجمع الأثنى و الجماعة اللغوية ، والمشترك القروي ، و المناطق الجغرافية الأوسع، مع الاستعانة في ذلك بإنجازات علم الاجتماع السياسي .

الثانية: العلاقة بين الطابع القومي العام للأمة من جهة أولى وبين التجمعات الفرعية و طوابعها المميزة من جهة اخرى مثل :

أ- تجمع الخليج وشبه الجزيرة.

ب- تجمع الشام.

ج- تجمع وادي النيل.

د- تجمع المغرب العربي.

فلا نستطيع أن ننكر وجود تشابه بين أجزاء هذه المناطق القريبة من بعضها البعض.

ب- ضعف إستراتجية الحركة القومية:

والحقيقة أن هذه الإستراتجية قد بدأت على يد " حزب البعث " و"حركة القوميين العرب " ثم على يد "جمال عبد الناصر" الذي انتقل بها من حدود الشام والمشرق العربي إلى مصر، إلى جانب التفاعل السياسي مع المغرب، ومع ذلك يمكن القول أن مركز التقل في القومية العربية كأيديولوجية كان مركزاً أو محصوراً في الجناح الشرقي من الوطن العربي والذي شهد مولد الفكرة القومية .

والملاحظ هنا أن منطقة المشرق والشام تتميز بنوع من الهشاشة والضعف بإعتبارها منطقة صراع إستراتيجي بين القوى المحيطة بها، كما تتميز بنوع من التفتت الإجتماعي والثقافي بما قد يجعلها غير قادرة على تشكيل رأس حربة في الحركة القومية العربية إذا أريد لها ان تتصدى للقوى والإتجاهات المناوئة للقومية العربية . وحتى عندما حاول "جمال عبد الناصر" ان يوسع من نطاق الحركة القومية ليضيف إليها ثقل مصر، فإن هذا التوسع لم يستند إلى قاعدة صلبة، ولذلك انتهى الى الاخفاق بمجرد وفاته .. لذلك يتعين علينا التفكير في محاولة تغيير إستراتيجية الحركة القومية.

ج- ضعف نظرية الثورة العربية :

ونجد هنا ضعفا في النظرية والأيديولوجية الثورية ينبع من نوع من الأحادية في النظرة ، ونوع من الجمود الفكري، مما يستدعي القيام بعمليه تجديدية شاملة مع الإستعانة بمستجدات البحث في العلوم الإجتماعية بحيث تواجه نقاط ضعف ثلاث هي :

(١) نظرية الإستعمار:

إذ لم تواجه الإيديولوجية القومية حتى الآن مهمة صياغة نظرية في هذا المجال تحدد الموقف من القوى المعادية للمشروع القومي، وخاصة فى الظروف الجديدة منذ مطلع التسعينات، أي ما بعد انهيار الإتحاد السوفيتي ، وحرب الخليج الثانية.

(٢) الموقف من الدين:

إذ يمكن القول أن أيديولوجية القومية العربية عموماً كانت أميل إلى المفهوم السياسي القائم على العلمانية (بمعنى فصل الدين عن الدولة)، والمرتبطة بكل من التحرر السياسي الليبرالي والتوحيد القومي في إطار " دولة- أمة " ويعود ذلك إلى نشوء فكرة القومية أصلا في منطقة المشرق العربي أواخر "القرن الماضي وأوائل القرن الحالي " وهي منطقة خضعت لسيطرة دولة إسلامية هي " الدولة العثمانية " وكان يتزايد إتجاهها التسلطي وخاصة على جماعة "الإتحاد والترقى" وبصفة أخص منذ بداية "العقد الثاني لهذا القرن " أي بعد ١٩١٠ م كما ذكرنا سابقا.

كما يضاف أيضاً إلى ذلك عامل آخر: هو طبيعة النخبة من حيث تكوينها الإجتماعي، ونقصد به ا تلك الشريحة المثقفة ذات الفكر العربي القومي، إذ تدل الوقائع التاريخية على ان هذه النخبة كانت ترتبط بفئة تنتمي إلى الطبقة الوسطى، والتي حظيت بنوع من التعليم العصري سواء في "اسطنبول " أو في " فرنسا " فكانت ذات منحى أقرب إلى نمط التفكير المنبعث من التجربة السياسية ا!لأوروبية سواء منها الأوروبية الشرقية (البلقانية) او الغربية . ولهذين السببين يمكن القول أن الفكر القومي العربي بنى نظريته في القومية على أساس استبعاد التأثير الفعال للاسلام فى سياق تكوين الأمة العربية (مثلما استبعد البعد الإقتصادي الإجتماعي).

ولذلك انطبع الفكر القومي التأسيسي بطابع مزدوج يتمثل من جهة أولى في عدم إعطاء محتوى سياسي إجتماعي معين للفكرة القومية، ومن جهة ثانية في عدم ابراز دور الاسلام في المجال القومي .

وينسحب هذا على كل من الفكر القومي النظري البحت، والفكر القومي المؤطر حزبيا من خلال حزب "البعث " و"حركة القوميين العرب " حيث كاد هذا الفكر الأخير وخاصة حتى عام ١٩٦٧ م، فكرا علماني النزعة وهو ما يتضح من خلال كلمات وأفكار كل من "ميشيل عفلق "، و"جورج حبش ".

(٣) الموقف من الدولة " نظرية الدولة " :

ونجد هنا فيضاً من الأفكار السياسية التي حاصرت القوميين فوقفوا حائرين إزاءها ولا يستطيعون جواباً . ويكفي أن نشير هنا إلى فكرة الدولة القطرية في المشرق ، وفكرة الدولة الوطنية في المغرب العربي ، وفكرة الدولة المدنية " المجتمع المدني " وفكرة " الدولة الدينية الإسلامية " ، و رغم بعض الاجتهادات القومية فقد ظلت هناك فجوة معرفية بخصوص نظرية الدولة في الفكر القومي ، حاول البعض ان يسدها من خلال مفهوم " الدولة الإقليمية " مثل " عصمت سيف الدولة " ولكن بدون تطوير لاحق لمفهوم الدولة .

مجالات التجديد الايديولوجي :

أولاً : تجديد نظرية الأمة والقومية :

وهنا يمكن القول إن الأمة العربية قد تبلورت من خلال فترة الإزدهار الأولى للحضارة الإسلامية ، أى منذ " القرن السادس الميلادى " وحتى القرن الثالث عشر بإعتبار سقوط "بغداد" على يد التتار عام ١٢٥٨ م.

وهنا يأتي تساؤل كبير. فالملاحظ أن الحضارة العربية الإسلامية بعد مرحلة الإزدهار الأولى هذه دخلت في حقبة جديدة يمكن تسميتها بحقبة الإنقطاع الحضاري وقد استمرت حوالي سبعة قرون، أي حتى القرن العشرين.

والسؤال هنا : هل أن الأمة العربية قد حافظت خلال حقبة الإنقطاع الحضاري على كامل خصائصها التي تكونت بها خلال مرحلة الإنطلاق الأولى؟ ويزيد من أهمية هذا السؤال أن الأمة العربية حينما دخلت في مرحلة الإنقطاع الحضاري قد كانت خرجت لتوها من عملية النشأة الأولى ، من حيث هي امة عربية . كذلك لم يكن قد تم تعريب كل من مصر والمغرب العربي تعريباً كاملاً إلا في حدود القرن الثالث عشر وهو نفس التوقيت الذي بدأ فيه الانقطاع الحضاري.

ثانياً ـ تجديد الاستراتجية :

ويكفي هنا أن نطرح سؤالا مهما هو :

ـ ما مدى الإمكانية والمصداقية لعملية نقل مركز الثقل للحركة القومية من الجناح الشرقي إلى الجناح الغربي للوطن العربي؟

ويمكن أن نقول هنا ان عملية النقل هذه لها ثلاث مزايا رئيسية هي :

أـ ان الجناح الغربي ابتداءا من مصر إلى مراكش يمثل الثقل الأكبر في المجموع العربي من حيث السكان والمساحة والموارد الاقتصادية .

ب- أن هناك همزة وصل طبيعية بين المغرب والمشرق تتمثل في " ليبيا "

ج – إن المغرب العربي يحتوي على وجود إجتماعي تلاحمت فيه العروبة بالإسلام مما برز بشكل واضح في الحركة الثقافية والسياسية أكثر من المشرق العربي.

- وتتأكد أهمية هذا التوجه في المرحلة القادمة حيث لا أمل للعرب إجتماعياً وسياسياً على المستوى العالمي سوى التوحيد القومي، ولكن من خلال التماسك العضوي مع الحزام الإسلامي العريض!.

ثالثاً- تجديد نظرية الثورة :

ونشير هنا إلى مايلي :

أ- التجديد في نظرية الإستعمار:

حيث يجب القيام بعمل فكري هائل يوضح مكانة الوطن العربي والعالم الإسلامي من النظام العالمي.

ب- تجديد الموقف من الدين:

ويتحقق ذلك من خلال اتخاذ نقطة الإنطلاق من التراث الحضاري العربي الإسلامي ثم تحقيق التواصل بين هذا التراث و بين الحاجات المتجددة والمعاصرة للمجتمع العربي بما يحقق مهمة "إسئناف التطور الحضاري " .

ج- الموقف من الدولة :

ويمكن أن يشكل مفهوم الدولة الإقليمية نقطه إنطلاق معقولة لصياغة نظرية سياسية للدولة بما يتفق مع الايديولوجية القومية.

***

مراجع مختارة من القومية العربية

١. الحكم دروزة وحامد الجبوري "مع القومية العربية ط ٤ "، بيروت : دار الفجر العربي الجديد للطباعة .١٩٦٠

٢. الشافعي محمد بشير، "نظرية الإتحاد بين الدول وتطبيقاتها بين الدول العربية" الإسكندرية منشأة المعارف : .١٩٦٣

٣. إلياس مرقص، "نقد الفكر القومي، ج١ (ساطع الحصري)، بيروت : دار الطليعة ١٩٦١.

٤. أمين الريحاني،(القوميات "، بيروت د ار ريحاني للطباعة والنشر ١٩٥٦.

ه. أنور الجندي، " القومية العربية والوحدة الكبرى"، القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٢. (كتب قومية ١٤١).

٦. أنيس صايغ، " تطور المفهوم القومي عند العرب "، بيروت دار الطليعة، .١٩٦١

٧ . توفيق برو، " القومية العربية في القرن التاسع عشر"، دمشق وزارة الثقافة ، ١٩٦٥

٨. جنيف، أرنولوفات، وآخرون "هذه هي القومية" ترجمة محمد عيتاني، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر،.١٩٥٣

٩. حازم زكي نسيبة، "القومية العربية، فكرتها ونشأتها وتطورها" ترجمة عبد اللطيف سرارة، بيروت، د. ت.

١٠ . رئيف خوري،،(معالم الوعي القومي)،، بيروت: دار المكشوف، .١٩٤١

١١. زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، بيروت: دار النهار،١٩٦٨.

١٢. ساطع الحصري، "أبحاث مختارة في القومية العربية، ١٩٢٣- ١٩٦٣ " القاهرة: دار المعارف، .١٩٦٤

١٣. ساطع الحصري، "آراء وأحاديث في القومية العربية"، القاهرة: مطبعة الإعتماد، .١٩٥١

١٤. ساطع الحصري، "العروبة أولاً : ط ٢،)، بيروت. دار العلم للملايين، .١٩٥٥

١٥. ساطع الحصري، "حول القومية العربية"، بيروت: د ار العلم للملايين،.١٩٦١

١٦. ساطع الحصري، "العروبة بين دعاتها ومعارضيها، ط ٤"، بيروت: دار العلم للملايين، .١٩٦١

١٧. ساطع الحصري ، "ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات "، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٩.

١٨. ساطع الحصري، (، نشوء الفكرة القومية،)، القاهرة: مطبعة الرسالة، .١٩٥١

١٩. ستالين "الماركسية و القضية القومية "، بيروت : د ار النهضة العربية، د. ت.

٢٠. شوقي العيسوي، "حول الوحدة العربية "، دمشق دار ابن زيدون، .١٩٥٧

٢١. طعيمة الجرف، "أبحاث في المجتمع العربي : القومية العربية والتطور السياسي للمجتمع العربي " القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة .١٩٦٥

٢٢. عبد الرحمن البزاز، " الإسلام والقومية العربية " بغداد: نادي البعث العربي، ١٩٥٢.

٢٣. عبد الرحمن البزاز،،(الدولة الموحدة والدولة الإتحادية"، القاهرة: دار القلم :١٩٦٠ .

٢٤. عبد العزيز الدوري، "الجذور التاريخية للقومية العربية " ، بيروت: د ار العلم للملايين، .١٩٦٠

٢٥. عبد الكريم أحمد، "القومية والمذاهب السياسية"، القاهرة: الهيئة العامة للتأليف . ١٩٧٠.

٢٦. عبد الله الريماوي،،(البيان القومي الثوري "، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ (جزآن).

٢٧. عبد الله الريماوي، " القومية والوحدة في الحركة القومية العربية الحديثة"، القاهرة: دار المعرفة، .١٩٦١

٢٨. عبدالله الريماوي، "المنطق الثوري للحركة القومية العربية الحديثة)،، القاهرة : دار المعرفة، .١٩٦١

٢٩. عبدالله عبد الدايم، "الجيل العربي الجديد "، بيروت : دار العلم للملايين،.١٩٦١

٣٠. عزة النص، " في آفاق الوحدة"، دمشق الاتحاد القومي، د. ت .

٣١. عصمت سيف الدولة، " الطريق إلى الوحدة العربية " ، بيروت : د ار الطليعة، ١٩٦٨.

٣٢. عصمت سيف الدولة، " لماذا وكيف وحدة القوى العربية التقدمية- دروس في الهزيمة"، بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٨.

٣٣. عفيف بهنسي، "الفن والقومية،)، دمشق وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٥، (كتب قومية ٥).

٣٤. علي عبد القادر (، دراسة لظاهرة القومية فى المجتمع العربي " القاهرة: دار الإسناوي للطباعة والنشر، ١٩٦٥.

٣٥. فؤاد الركابي "القومية حركتها ومحتواها"، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

٣٦. فؤاد الركابي "مفاهيم في الاشتراكية والديمقراطية والوحدة - دراسة ونقد "، القاهرة: معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٦٥.

٣٧. كوهن هانز، "القومية : معناها وتاريخها"، ترجمة أمين محمود الشريف، القاهرة: مكتبة نهضة مصر، د. ت.

٣٨. كوهن هانز،(عصر القومية)، ترجمة عبد الرحمن صدقي- القاهرة : مؤسسة العرب.

٣٩. لينين،(حق الشعوب في تقرير المصير: ملاحظات إنتقادية على القضية القومية"، بيروت: دار النهضة القومية.

٤٠. " محاضر محادثات الوحدة " مارس- إبريل ١٩٦٣ ، القاهرة : الدار القومية للطباعة و النشر،١٩٦٣.

٤١. محمد الغزالي، " حقيقة القومية العربية" القاهرة : دار العروبة، د. ت.

٤٢. محمد عزة دروزة، "الوحدة العربية" بيروت، المكتب التجاري للطباعة، ١٩٥٨.

٤٣. محمد عمارة، " الأمة العربية وقضية التوحيد"، القاهرة : الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

٤٤. محمد عمارة، " العروبة في العصر الحديث "، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧.

٤٥. منيف الرزار، " تطور معنى القومية"، بيروت: دار العلم للملايين ١٩٦٠ ، ٩٦ ص

٤٦. ميشيل عفلق، "معركة المصير الواحد"، بيروت : دار الآداب : ١٩٥٨ – ١٩٠ ص

٤٧. ميشيل عفلق وآخرون ، دراسات في القومية ، بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٠ ، ١٣٤ ص

٤٨. نقولا زيادة "العروبة في ميزان القومية"، بيروت: دار العلم للملايين ،١٩٥٠، ٩٥ ص!.

٤٩. نور الدين حاطوم، "تاريخ الحركات القومية"، بيروت: دار الفكر الحديث ١٩٦٧، ٣ أجزاء:

ج١: يقظة القوميات الأوربية ج ٢: الحركة القومية ج ٣: الوحدات القومية .

٥٠. نور الدين حاطوم، " حركة القومية الألمانية " ، بيروت: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠، ٢٦٠ ص .

٥١. نور الدين حاطوم، " حركة القومية الإيطالية"، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧١ ، ١٩٥، ص.

٥٢. نور الدين حاطوم، "حركة القومية العربية " ، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٧، ١٦٥ ص.

٥٣. نور الدين حاطوم، "دراسات مقارنة في القوميات الألمانية و الإيطالية، والامريكية والهندية"، القاهرة: معهد البحوث والدر اسات العربية، ١٩٦٨، ٢٠٥ ص.

٥٤. نور الدين حاطوم، (، يقظة القومية العربية"، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية،١٩٦٨، ١٢٣ ص.

٥٥. فريدريك هرتز، "القومية في التاريخ و السياسة"، ترجمة عبد الكريم أحمد، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨.

٥٦. يوسف عبدالله صايغ، " الخبز مع الكرامة- المحتوى الأقتصادي و الإجتماعي للمفهوم القومي العربي " بيروت، دار الطليعة،١٩٦١.

مراجع إضافية في القومية والقومية العربية

١. د. فؤاد مرسي، نظرية ثانية إلى القومية العربية، كتاب الأهالي، القاهرة، إبريل ١٩٨٩.

٢. ميشيل عفلق، في سبيل البعث، دار الطليعة للطباعة و النشر، بيروت، ١٩٥٩.

٣. أحمد عبد المعطي حجازي، عروبة مصر، دار الآداب ، بيروت، ١٩٧٩.

٤. سمير أمين، الأمة العربية، موفم للنشر، الجزائر، ١٩٩٠.

٥. د. محمد عمارة، الإسلام والعروبة ، الهيئة المصريه العامة للكتاب القاهرة، ١٩٩٦.

٦. د. عصمت سيف الدولة، نظرية الثورة العربية، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢.

٧ . عبد الله الريماوي، البيان القومي الثوري، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٦٦.

الفهرس

مقدمة بقلم : حبيب عيسى

الفصل الأول: الإطار النظري للقومية

- المبحث الاول: الأمة و القومية في الفكر السياسي العالمي
- المبحث الثاني: الأنماط السياسية للتكوين القومي

الفصل الثاني : عوامل القومية

الفصل الثالث : السياق المفاهيمى و التاريخي للأمم و القوميات

الفصل الرابع: المراحل التاريخية لتطور الفكرة القومية العربية

الفصل الخامس : القومية العربية بين الأزمة و التجديد الأيديولوجى

مراجع مختارة عن القومية العربية